الباب الرابع
العلمانية ودول الاسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

أسباب وجود العلمانية في العالم الإسلامي يمكن أيجازها في سببين بارزين انحراف المسلمين الذي يقابل تحريف النصرانية والتخطيط اليهودي الصليبي(١) أما عن تاريخ دخول العلمانية العالم الإسلامي فلم يكن العالم الإسلامي يعرف العلمانية لأن ظروف المجتمعات الإسلامية لم تكن في ظروف المجتمعات المسيحية التي فرض واقعها ظهور هذه البلية على البلاد والعباد فكان دخولها على النحو التالي :

١ـ في مصر:دخلت العلمانية مصر مع حملة نابليون بونابرت وقد ذكرها الجبرتي فى الجزء المخصص للحملة الفرنسية على مصر وأحداثها وأدخل الخديوي اسماعيل القانون الفرنسي سنة ١٨٨٣م،وكان هذا الخديوي مفتونا بالغرب، وكان أمله أن يجعل مصر قطعة من أوروبا.

٢ـ الهند: حتى سنة ١٧٩١م كانت الاحكام وفق الشريعة الاسلامية ثم بدأ التدرج من هذا التاريخ لإلغاء الشريعة الإسلامية بتدبير الإنجليز وانتهت تماما في أواسط القرن التاسع عشر.

٣ـ الجزائر: إلغاء الشريعة الإسلامية عقب الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠ م.

٤ـ تونس: أدخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩٠٦ م.

٥ـ المغرب: ادخل القانون الفرنسي فيها سنة ١٩١٣م.

---

١) العلمانية نشاتها وتطورها واثارها فى الحياة الاسلامية المعاصرة ص ٧

٦- تركيا: لبست ثوب العلمانية عقب إلغاء الخلافة واستقرار الأمور تحت سيطرة مصطفى كمال أتاتورك، وان كانت قد وجدت هناك إرهاصات ومقدمات سابقة.

٧- العراق والشام: ألغيت الشريعة أيام إلغاء الخلافة العثمانية وتم تثبيت أقدام الإنجليز والفرنسيين فيها.

٨- معظم أفريقيا: فيها حكومات نصرانية امتلكت السلطة بعد رحيل الإحتلال.

٩- أندونيسيا: ومعظم بلاد جنوب شرق آسيا دول علمانية.

١٠-إنتشار الأحزاب العلمانية والنزعات القومية: حزب البعث، الحزب القومي السوري، النزعة الفرعونية، النزعة الطورانية، القومية العربية(١)

مظاهر العلمانية في الحياة الإسلامية :

أولا – في الحكم والتشريع:روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال لينقضن الإسلام عروة عروة، كلما انتقضت عروة تمسك الناس بالتي تليها وأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة ولقد بدأ الانحراف في تصرفات الحكام المسلمين قديماً غير أن النقض الواعي لهذه العرى لم يظهر إلا في العصر الحديث حين بلغ المسلمون قمة الضعف وغاية التدهور، كان

١) العلمانية كارثة الأمة ص ١٤

الإسلام طيلة القرون السابقة أعمق في النفوس من أن يستبدل به أي منهج آخر، وكانت الجاهلية أحقر من أن تطاوله أو تطمع في أبنائه غير أن الحال في العصر الحديث قد انعكس تماما فلم يبق من الإسلام واقعياً إلا تصورات خاطئة وفي الوقت نفسه كانت الجاهلية الأوروبية المنتفشة تتولى قيادة الفكر البشري وتوجيه الحضارة الإنسانية، ونتيجة لهذا الوضع المزدوج تسربت العلمانية إلى العالم الإسلامي وانتقضت تلك العروة الكبرى.

فمن الوجهة السياسية لم يكن في العالم الإسلامي شئ يمكن أن يسمى الوعي السياسي بل كان الأمر متروكاً للحاكم حتى أن الوصف الذي يطلقه بعض الباحثين الغربيين على حال المسلمين القرن الماضي رغم ما فيه من مبالغة ليس بعيدا عن الصحة، ومن ذلك قول أحدهم: وقد كتبت شريعة موجزة في جبهة كل شرقي، شريعة ليس لها مثيل في الوصايا الأوروبية العشر، وهي: عليك أيها الرجل الشرقي أن تجعل الرجل الذي يقيمه الله عليك ملكاً وتقدسه وتعبده، فإذا أحبك أحبه وإذا استلب أموالك ومتاعك واضطهدك شر اضطهاد فأحبه على ذلك أيضاً، وإياك أن تحول عن هذا له، لأنه سيدك وأنت عبده ومولاك المتصرف بك تصرف صاحب الأمانة في أمانته.

ومن الوجهة التشريعية كان القضاء غير المنظم في العالم الإسلامي يعتمد على الشروح والحواشي والمختصرات المتأخرة التي كانت أقرب الطلاسم والمعميات إلى حد جعل الذين يفقهونها لا سيما مع الركود العلمي العام قلة ضئيلة، ثم هى في الحقيقة لم تكن المصدر الوحيد للتشريع فبجانبها كانت أهواء ذوي السلطة وأعراف المجتمع وتقاليد القبيلة الخ وإذ كان سبب هذا الواقع المؤلم هو الانحراف في تصور الإسلام وفهمه وبالتالي في تطبيقه وتحكيمه، فقد كان الحل الوحيد الصحيح للمشكلة هو العودة إلى الإسلام إيماناً جازماً وعقيدة خالصة وتطبيقاً كاملاً لكن هذه العودة لم تقع بل كان انحراف أخطر وأعظم أنتجه الشق الثاني من الأزمة وهو تفوق الجاهلية وسيطرتها العامة.

هذا التفوق وتلك السيطرة كانا مذهلين في كل ميدان لكن المسلمين المتخلفين فهما وواقعاً رأوهما أعظم بكثير جداً من حقيقتهما إلى حد أن الصدمة النفسية التي حاقت بالأمة الإسلامية احتاجت إلى عشرات السنين لتخفيف آثارها وإلى الكثير من المحاولات والتجارب المتدرجة وفي النماذج التي سيقت سلفاً عن إمكان تقبل المسلمين الذاتي للعلمانية ما يوضح هذه الحقيقة ومن أهم القضايا التي يجدر الانتباه إليها أن الانحراف غير المقصود ابتداء من منطلق التخلص من جمود الفقه الإسلامي أمام التغيرات الحيوية الجديدة، ومن توهم المسلمين أن سبب تخلفهم هو عجزهم التنظيمي والإداري وأن محاكاة أساليب الحياة الغربية

جديرة بالقضاء على ذلك التخلف، وعلى هذا الأساس قامت الحركة المسماة حركة الإصلاح في جناحي العالم الإسلامي تركيا ومصر ٠

في تركية: سنة ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م أصدر السلطان عبد المجيد مرسومه الشهير: لا يخفي على عموم الناس أن دولتنا العلية منذ مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها، لذا كانت قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية أهاليها وصلت حد الغاية، وقد انعكس الأمر منذ ١٥٠ سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة، فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر واعتماداً على المعونة الإلهية قد رؤي من الآن فصاعداً أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها إدارة ممالك دولتنا العلية المحروسة، والمواد الأساسية لهذه القوانين هي عبارة عن الأمن على الأرواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج وهيئة طلب العساكر للخدمة ومدة استخدامهم والحق أن الإصلاح كان ضرورياً جداً، وليس لأحد أن يعترض على الفكرة في ذاتها، ولكن ما صاحبها من سوء الفهم وغبش التصور بالإضافة إلى سحق الشريعة الإسلامية بكاملها تحت شعار الإصلاح نفسه وهو ما فعله أتاتورك وفي استطاعتنا أن نلحظ ذلك من أول الطريق بمطالعة تقرير اللجنة المشكلة لدراسة حالة التشريع في البلاد التي انبثق عنها إخراج مجلة الأحكام العدلية:

لا يخفي على حضرة الصدر العالي أن الجهة التي تتعلق بأمر الدنيا من علم الفقه كما أنها تنقسم إلى مناكحات ومعاملات وعقوبة، كذلك القوانين السياسية للأمم المتمدنة تنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة ويسمى قسم المعاملات منها القانون المدني لكنه لما زاد اتساع المعاملات التجارية في هذه الأعصار مست الحاجة إلى استثناء كثير من المعاملات كالاسفتجة التي يسمونها حوالة وكأحكام الإفلاس وغيرهما من القانون الأصلي ووضع لهذه المستثنيات قانون مخصوص يسمى قانون التجارة وهكذا كانت الثلمة الأولى في الشريعة متمثلة في قانون التجارة، والمصيبة الكبرى هي الأساس الفكري الذي بني عليه القانون وهو اعتباره جزءاً من القانون المدني الذي بعينه ما يسمى في الاصطلاح الفقهي المعاملات ثم تلك الفكرة الدخيلة: مقارنة الإسلام بالأنظمة الكافرة واعتبار أممها متمدنة وهذه السذاجة والغفلة عند منفذي الاصلاح الأوائل أصبحت عند الشباب التركي الدارس في أوروبا فكرة واعية ومبدأ مرسوماً ومن ثم استبدل أولئك المثقفون ثقافة غربية بمسمى الاصلاح وحددوا مواصفاته الخاصة التي ترمي في النهاية إلى نبذ الإسلام والتمسك بركاب أوروبا الكافرة.

سرت في قلوب أولئك التفرنج وتطور الأمر إلى أن أنشأت حركة ثورية تطالب بالإصلاح الداخلي الذي تمثل عندها في وضع حد لسلطة عبد الحميد المطلقة، وكان قادة هذه الحركة من مختلف الاتجاهات والميول

والارتباطات لا يجمعهم إلا هذا الهدف وهو قيام حكومة دستورية، ثم لا يتفقون على شئ بعد ذلك المطلب.

نظرياتهم السياسية متعددة بقدر ما أتيح لكل منهم أن يقرأ في اللغة الأجنبية التي يتقنها صباح الدين وقع بيده كتاب أدموند ديمولان عن سر تقدم الإنجليز السكسونيين واعتنق فكرة اللامركزية وأحمد رضا كان من سوء حظه أنه تعرف على أوجست كونت فاعتنق الوضعية إلى حد الإصرار على تأريخ منشوراته بالتاريخ الخاص للوضعيين وحذف التاريخ الهجري ليقود بهذه المنشورات دولة الخلافة.

وأحمد رضا أمه نمساوية وأبوه كان يعرف إنجليزي وعلي بك نظراً لميوله للإنجليز وحبه لهم ونامق كمال كان وطنياً متأثراً بالنزعة القومية التي عاصرها أثناء إقامته في العواصم الأوروبية المختلفه ووقع الصدام المحتوم بين هذه الحركة وبين السلطان عبد الحميد رحمه الله الذي كان يروم الإصلاح الحقيقي ممثلاً في دعوته إلى الجامعة الإسلامية وإعلان الجهاد وفي سنة ١٨٩٧ استطاع بحنكته ودهائه أن يشل هذه الحركة ويستميل كثيراً من عناصرها، لكن الجو الذي خلقته هذه الحركة والأفكار التي نشرتها ضد الإسلام كانت دافعاً مشجعاً لنشأة حركات سرية تآمريه تتمسح بشعارات وأهداف هذه الحركة وتخفي في أعماقها ما لم يكن في الحسبان.

ان الحركة السالفة الذكر التي تزعمها مدحت باشا وأعوانه تصور الجانب الذاتي من المأساة، وقد تهيأ الجو لأعداء الأمة المتربصين كي يقضوا على الإسلام عقيدة وشريعة معتمدين على ذلك الجانب لأنه في تلك السنة نفسها ١٨٩٧اجتمع المؤتمر الصهيوني الأول وقرر أن تقوم دولة إسرائيل في فلسطين التابعة لحكم فلسطين التابعة لحكم عبد الحميد وبسبب رفض السلطان بإصرار المساومة على فلسطين ولأن الحقد اليهودي على الإسلام لم يخمد طوال العصور ونظراً لنجاح التجربة اليهودية في أوروبا فقد اقتضى الأمر تدمير الخلافة العثمانية بثورة شبيهة بالثورة الفرنسية في أهدافها وشعاراتها لتكون فاتحة ظهور دول علمانية في العالم الإسلامي على النمط الأوروبي ثم تفتح الطريق أمام الهدف الأعظم والحلم القديم قيام حكومة يهودية عالمية دستورها التلمود وملكها من نسل داوود ولا غرابة إطلاقاً في أن تكون اليد الطولى في هذا التدمير لأولئك اليهود الذين وسعتهم سماحة الإسلام حين ضيقت عليهم أسبانيا النصرانية ولاغرابة في أن يجد التلموديون عناصر إسلامية من المغفلين أو ضعاف الإيمان يبذلون تضحيات عظيمة ويشكلون التغطية الضرورية اللازمة للمؤامرة من هذين العنصرين يهود الدونمة والمأجورين أو المغفلين من أدعياء الإسلام تكونت الحركة العلمانية المسماة بحركة الاتحاد والترقي التي تسير وفق طقوس الماسونية العالمية ولننظر ما قاله سيتون واطسن :إن الأدمغة الحقيقة في الحركة

كانت يهودية ـ مسلمة وقد جاءت مساعدتها المالية من الدونمة الأغنياء ويهود سلانيك والرأسماليين العالميين أو شبه العالميين في فيينا وبودابست وبرلين وربما في باريس ولندن والحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير إسلامية فمن تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف ولم يكن أحد من الناس يجرؤ أن يتنبأ أن هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دوراً رئيسياً في ثورة كان لها نتائج خطيرة في سير التاريخ وبعد صراع مرير مع الخليفة وقفت فيه كل القوى الدخيلة والعميلة ضده انتصرت هذه العصبة وأقصت عبد الحميد عن الخلافة بالقوة سنة ١٣٢٥هـ ١٩٠٩م وكان الذي أخذ بثأر هرتزل منه هو قره صو اليهودي وبزواله زالت العقبة الأخيرة في طريق مخططها اللاديني وفصلت تلك العصبة الخلافة عن السياسة واختارت سلطاناً جديداً لم يكن يساوي في نظرهم إلا أحد الباباوات المؤقتين، ورأوا أن المناخ لم يتهيأ بعد لإلغاء منصب الخلافة أما فكرة الجامعة الإسلامية فقد أبطلها أولئك ونادوا بفكرة القومية الطورانية معلنين أن حركتهم تهدف إلى تتريك الولايات العثمانية، وكانوا يقصدون العرب مما دفع العرب إلى التعلق ببريطانيا ووضع مستقبلهم في يد عميل المخابرات لورانس منادين هم أيضاً بالثورة العربية والقومية العربية ويذكر برنارد لويس أن المستشرقين ومنهم الكونت قسطنطين بوزريسكي الذي ادعى الإسلام

وتسمى مصطفي جلال الدين هم الذين أسسوا فكرة الطوراني ثم أعلنت عصبتهم الدستور ذلك الصنم الذي جعلته دعايتهم العريضة أعظم الغايات وجاء الدستور معبراً عن أهدافهم اللا دينية إذ رفع شعارات الماسونية، وشدد على الحرية الدينية ومساواة غير المسلمين بالمسلمين في كل شئ باسم الوحدة الوطنية،وعطلت المحاكم الشرعية باسم الاصلاح والتقنين، مما أتاح الفرصة لأعداء الإسلام ليتمكنوا من العمل بكل حرية ونشاط وإذا اعتبرنا أفكار ضياء كوك ألب مؤشراً للانتماء الفكري لهذه الحركة فسنجدها حركة لا دينية سافرة، لكن الناس ظلوا مترددين بشأنها لم تظهر أهدافها الحقيقية فقد كان المخطط ينفذ بدقة ماهرة وكانت اللعبة العالمية تقتضي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقي في جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها إلى الأبد وهذا أفضل قطعاً من مائة مشروع لتقسيم تركيا وهدم الإسلام وتمت صناعة البطل بنجاح باهر ووقف يتحدى الحلفاء وألقى باليونان في البحر ولم ير الحلفاء بداً من التفاوض معه وكانت ثمرة المفاوضات هي الاتفاقية المعروفة باتفاقية كيرزن ذات الشروط الأربعة :

١ -إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً من تركيا.

٢ -أن تقطع تركيا كل صلة مع الإسلام.

٣- أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية في تركيا ٠

٤- أن يستبدل الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور مدني بحت.

ويصف المؤرخ أرمسترونج خطوات تنفيذ الاتفاقية قائلاً :انطلق أتاتورك يكمل عمل التحطيم الشامل الذي شرع فيه وقد قرر أنه يجب عليه أن يزيل جميع الأنقاض التي تحيط بها،هو حطم فعلاً النسيج السياسي القديم،ونقل السلطنة إلى ديمقراطية،وحول الإمبراطورية إلى قطر فحسب،وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية، إنه طرد السلطان الخليفة وقطع جميع الصلات عن الإمبراطورية العثمانية، وقد بدأ الآن في تغيير عقلية الشعب بكاملها وتصوراته القديمة وعاداته ولباسه وأخلاقه وتقاليده وأساليب الحديث ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي وامتدح توينبي عمله في فن الهدم وقطع الصلة بالماضي، وقال:إن الدولة التركية التي أقامها مصطفي كمال على النسق الغربي تبدو عملاً ناجحاً لم يتحقق مثله حتى ذلك الوقت في أي بلد إسلامي آخر وامتدحه ولفرد كانتول شمث قائلاً: رأينا تركيا في سبيل رفعة شأنها وخلق مثل عليا جديدة لم تتردد في سحق السلطات الدينية وألغت تعاليمها وحررت الإسلام وكشفت النقاب عن الدين الحق القويم٠

نصب مصطفى كمال نفسه إلهاً من دون الله يشرع للأمة كما يشاء، فلفق قانوناً فريداً يتكون أكثره من القانون السويسري والإيطالي

وغيرهما وأكمل الباقي من عنده، ومع ذلك فهو يدعي أنه كله من عنده قائلاً: نحن لا نريد شرعاً فيه قال وقالوا ولكن شرعاً فيه قلنا ونقول ويصف أحد الكتاب الغربيين جلسة في مجلس النواب فيقول أن مصطفي كمال وقف قائلاً :إن التشريع والقضاء في أمة عصرية يجب أن يكونا عصريين مطابقين لأحوال الزمان لا للمبادئ والتقاليد ثم اقتفاه وزير العدل شارحاً ومفسراً :إن الشعب التركي جدير بأن يفكر بنفسه بدون أن يتقيد بما فكر غيره من قبل، وقد كان كل مادة من مواد كتبنا القضائية مبدوءة بكلمة قال المقدسة، أما الآن فلا يهمنا أصلاً ماذا قالوا في الماضي بل يهمنا أن نفكر نحن ونقول نحن ويعترض عليه مرة أحد القانونيين بقوله :إن هذا النظام الذي تريدون وضعه لا يوجد في أي كتاب للقانون فيتلقى الجواب التالي إن النظم ليست إلا أشياء وأمورا تكيفت ومرت من التجارب علي أن أنفذ ما أريد وعليكم أن تدرجوا ما أعمل في الكتب ونتيجة التطرف والغلو المفرط والأعمال التي لا مبرر لها إلا تنفيس الحقد الأوروبي على الإسلام ومركب النقص الذي كان يستشعره الكماليون اتخذت تركيا المتعلمنة تدبيرات وإجراءات غريبة حقاً:فقد ألغت بالعنف والإرهاب الكتابة التركية بالأحرف العربية ثم تجرأت فحرمت الأذان بالعربية، وكتبت المصحف أو ترجمته بلغتها الهجين،وحددت عدد المساجد وأقفل الكثير منها أو حولته إلى ما لا يتفق وقداسته كما فعلت بجامع أيا صوفيا،وألغت وزارة الأوقاف وفرضت بقوة

السلاح المسخ الفكري وحتى المظهري على الأمة لاسيما معاركة الأوروبية التي سالت لأجلها الدماء، وألغت الأعياد الإسلامية، وحطمت بصورة استبدادية مظاهر الحشمة والحياء الإسلاميين، فأكرهت النساء على تقليد المرأة الغربية في كل شئ وحاربت بشدة صارمة كل من اعترض طريقها من المتورعين وحتى المعتدلين شيئاً ما من الكماليين لذلك فإن حكومة تركيا العلمانية الكمالية هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ليست دينية من طراز فرنسا وإنجلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللا دينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الأناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغي الكنائس والحقيقة المرة أن مصطفي كمال قد خلق نموذجاً صارخاً للحكام في العالم الإسلامي وكان لأسلوبه الاستبدادي أثره في سياسات من جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربي مبرراً كافياً للقضاء على الإسلام ففرنسا مثلاً بررت تنصير بلاد المغرب العربي بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم وليس أعجب من هذا الرجل وزمرته إلا من ينادون اليوم من الزعماء بإقامة حكومات علمانية في بلادهم ويقولون أن مصطفي كمال هو قائدهم الروحي في مصر :يقول توينبي أن مصر بدأت تتجه نحو الاصطباغ بالصبغة الأوروبية منذ أيام محمد علي متفوقة على تركيا، كما يرى جب أنها

سبقت تركيا في ذلك وكان الخديوي إسماعيل مفتوناً بالغرب وقد مهدت سياسته الفاشلة لتدخل بريطانيا في شؤون مصر ثم احتلالها نهائياً ومع الاحتلال جاء كرومر بمخططه الخبيث وبدأت القوى العالمية تشرف على حركة إلغاء الإسلام أو عزله عن شؤون الحياة كلها والحق أنه لم يكن لكرومر ولا لغيره أن ينجح لولا الزعماء والعلماء الذين تطوعوا لخدمته، فالحزب الوطني أول حزب سياسي في مصر يعلن برنامجه الرسمي سنة ١٨٨٢م ونجد فيه الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب، وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات، ويعلم أن الجميع إخوان وأن حقوقهم في السياسة والشرائع متساوية.

والثورة العرابية لو قدر لها أن تنجح فربما كانت سبقت مصطفي كمال بأشياء كثيرة فها هو أحد زعمائها يقول كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا، ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم ومع ذلك فسنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت لهذا فما الذي يمنع كرومر بعد ذلك أن يقول: إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ولكنه فاشل كنظام اجتماعي، فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني ثم أن

كرومر قد حرص على أن يؤكد للمصريين أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوروبية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوروبية ومن هنا كانت رغبة المحتلين الشديدة في تعاون العلماء (المتنورين) معهم، وهي الرغبة التي تجلت في تشجيعهم لحركة الإصلاح واحتضانها.

كان زعيم الإصلاح في مصر هو الشيخ محمد عبده الذي أثاره تقدم الغرب وتخلف المسلمين في كل ميدان فهب يدعو إلي الإصلاح متأثراً بفكر جمال الدين الأسد الشهير بالأفغاني، وكان أمل المخطط اليهودي الصليبي كما أوضح كرومر وجب وغيرهما أن تكون حركة الشيخ مماثلة تماماً لحركة سير أحمد خان مؤسس جامعة علي قره بالهند التي تسمت المعتزلة الجدد وكانوا مفتونين بحضارة الغرب إلي أقصى حد لكن ظروف مصر غير ظروف الهند، كما أن الشيخ وإن كان اعتزالياً متطرفاً لم يستطع أن يصدم المشاعر الإسلامية بأكثر مما فعل حيث قامت ضد بعض تصرفاته ضجة في كثير من أنحاء العالم الإسلامي (الفتوى الترنسفالية، فتوى إباحة صناديق التوفير..) وليس ثمة شك في أن مصر الحديثة التي يريدها كرومر هي دولة لا دينية لا صلة لها بالإسلام، أما محمد عبده فلم تكن لديه كما يبدو صورة واضحة، إنما كان يهدف إلى الإصلاح الذي ينشده في ظل الاحتلال الإنجليزي لهذا فإن التعاون بين كرومر والشيخ يعني تقديم تنازلات من الأخير للأول، أما العدو المشترك لهما فهم

العلماء غير الأحرار الذين كانوا رغم ما فيهم ينفرون من المحتل والعمل معه في أية صورة وابتدأ محمد عبده عمله الإصلاحي بمهاجمه الأزهر ونقد المحاكم ونقد الحياة الاجتماعية وكرومر من ورائه يقطف الثمار فقد كانت بريطانيا كعادتها عازمة على إلغاء الشريعة الإسلامية فور تمكنها من البلاد، غير أن كرومر رأي أن أفضل وسيلة لذلك هى تفريغ المحاكم الشرعية من محتواها بأن يتولاها علماء ذوو طابع تحرري تتم تربيتهم بإشرافه هو والشيخ في معهد خاص لقضاة الشرع،وقوى عزمه على ذلك، والمعلومات التي يذكر أنه حصل عليها عن الكلية التي أنشأها في سراييفو حكومة النمسا والمجر لتخريج قضاة الشرع المسلمين التي يقول عنها أنها كلية أثبتت نجاحها من كل الوجوه ويتحدث عن ذلك في تقريره السنوي لحكومته عام ١٩٠٥وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة يرأسها المفتي الأكبر السابق (محمد عبده)بقصد وضع خطط مشابهة تلائم ظروف مصر وحاجاتها، قد أتمت اللجنة عملها في شهر يونيه السابق ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة وهذه النظم تزود الطالب ببرامج ثقافية ذات طابع تحرري لا تحصر الطالب في الدراسات الدينية الخاصة والعجيب حقاً أن محمد عبده لم يكن محرجاً من اقتباس القوانين التشريعية الغربية، ما دام ذلك يحقق (الإصلاح في نظره) بل يقول العقاد وهو من المعجبين به إنه علم أن المراجع العربية لهذه القوانين لا تعطيه الإحاطة الواجبة بتلك

المبادئ في أصولها المأثورة عند فلاسفة التشريع الغربيين فشرع في تعلم اللغة الفرنسية كما أن إعجابه بالثقافة الغربية هو الذي جعله يبالغ في انتقاص الأزهر مطلقاً عليه لفظ الإسطبل أو المارستان أو المخروب ويحاول إصلاحه وإصلاح التعليم كله على الطريقة الغربية ويقول إن كان لي حظ من العلم الصحيح فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ولا شك أن الأزهر كان بحاجة إلى الإصلاح، لكن الإصلاح الذي يريده الإنجليز ومعهم الشيخ كان من نوع آخر، لاسيما وأن شبح سليمان الحلبي يهدد كرومر كل حين.

وكان من أعظم خطط الإنجليز للقضاء على الشريعة الإسلامية إنشاء مجلس شورى القوانين الذي كانوا يحكمون مصر من خلاله، والذي قدم الشيخ له خدمات جليلة مما دفع المستشار القضائي الإنجليزي إلى رثائه في تقريره عن المحاكم لعام ١٩٠٥ قائلاً ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وأن أبدي أسفي الشديد على الخسارة التي أصابت هذه النظارة بفقده إلى أن يقول وفوق ذلك فقد قام لنا بخدمة جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الإصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الإصلاحات القضائية، إذ كان يشرح للمجلس آراء

النظارة ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وإنه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظراً لسمو مداركه وسعة إطلاعه وميله لكل ضروب الإصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته إلى مدن أوروبا ومعاهد العلم وقد يكون أخطر آثار محمد عبده التي تعد ركيزة من ركائز العلمانية في العالم الإسلامي إضعاف مفهوم البراء والولاء، ودار الحرب ودار الإسلام إذ كان الشيخ أعظم من اجترأ عليه من المنتسبين للعلماء، لا بتعاونه مع الحكومة الإنجليزية الكافرة فحسب، ولكن بدعوته الصريحة إلى موالاة الإنجليز وغيرهم بحجة أن التعاون مع الكفار ليس محرماً من كل وجه ودعوته إلى التقريب بين الأديان.

حقيقة أن الرأي العام الإسلامي قد ثار على بعض فتاوى الشيخ التي أباح بها موالاة الكفار ولكن تأثيرها في الأمة لا شك فيه، لاسيما في تلك الفترة الحرجة التي تتميز بغبش الرؤية واختلاط المفاهيم.

ويليها في الخطورة فتواه حول إباحة الربا بطريق صناديق التوفير معتمداً على مفهوم الآية من أنه لا يحرم من الربا إلا الأضعاف المضاعفة وأخيراً فإنه بقصد أو بدون قصد قد أوجد القاعدة التي ارتكز عليها من يسمون دعاة الإصلاح للتعلق بأذيال الغرب وإقصاء الإسلام عن توجيه الحياة، إذ ظلوا ينقضون عرى الإسلام عروة عروة حتى أن المعركة الآن أصبحت تدور ضد قانون الأحوال الشخصية وهو البقية الضئيلة من آثار

الشريعة الإسلامية والميزة الاجتماعية التي تميز المسلم عن غيره ولم يكن محمد عبده علمانياً ولكن أفكاره تمثل بلا شك حلقة وصل بين العلمانية الأوروبية والعالم الإسلامي، ومن ثم فقد باركها المخطط اليهودي الصليبي واتخذها جسراً عبر عليه إلى علمانية التعليم والتوجيه في العالم الإسلامي وتنحية الدين عن الحياة الاجتماعية بالإضافة إلى إبطال العمل بالشريعة والتحاكم إلى القوانين الجاهلية المستوردة، واستيراد النظريات الاجتماعية الغربية، وهو ما تم جميعه تحت ستار الإصلاح أيضاً.

أما الجماهير الإسلامية فقد اتخذت أفكار الشيخ الإصلاحية مبرراً نفسياً لتقبلها للتغيير العلماني المتدرج في الدول العربية وقد صور محمد المويلحي في عمله الرائع حديث عيسى بن هشام شيئاً من ذلك على لسان أبطال الرواية، إذ يسأل أحدهم متعجبا كيف ساغ للمصريين أن يأخذوا بقانون نابليون المخالف للشريعة؟ فيجيب الآخر بأن المفتي أقسم بالله أنه موافق للشريعة وقد عاصر محمد عبده رجل آخر من دعاة الإصلاح هو عبد الرحمن الكواكبي يحق لنا أن نقول أنه أول من نادى بفكرة العلمانية حسب مفهومها الأوروبي الصريح فهو يقول: يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفي ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون

السابقون، فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري ٠

دعونا ندبر حياتنا ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء واقتفي هذين عدد من الكتاب والصحفيين المشبوهين من أدعياء الإسلام وغيرهم، يطالبون بضرورة فصل الدين عن السياسة وإبعاده عن واقع الحياة وأن ذلك هو الحل الوحيد لمشاكل الشرق، وكان لسموم المستشرقين ودسائس المبشرين أعظم الأثر في ذلك وقد هوجمت الشريعة الإسلامية بكاملها وتوالت حملات التشكيك معلنة عدم ملاءمتها لمقتضيات العصر وظروف التطور، ومن أبرز الموضوعات التي هوجمت:

١ ـ الجانب الاقتصادي: فقد حرص المغرضون على تضخيم فتوى محمد عبده ليبتروا هذا الجانب بكامله عن الشريعة، ومن استخدموا لذلك حفني ناصف الذي قال إن الربا بفائدة ليس من أنواع الربا المحرم، وأن سبب تخلف مصر هو عدم فتح بنوك على الطريقة الغربية ثم تلاه من تلاه حتى استصدرت فتوى من أحد شيوخ الأزهر البارزين بإباحته، ولا يزال هذا هو رأي من يسمون أصحاب الاتجاه العصري وقد تم عملياً عزل الشريعة

عن هذا المجال المهم منذ زمن بعيد إلا أن المغرضين ما يزالون حريصين على اختلاق ما يبرره.

٢ـ الجانب الاجتماعي: إذ كانت أفكار محمد عبده أيضاً منطلقاً للهجوم على موقف الشريعة من المرأة ولقد أتم المستعمرون عملياً إقصاء الشريعة بل إسدال الستار على هذا الموضوع من أساسه، وزرعوا الأحزاب السياسية المتباينة التي تتفق جميعها في عدم رفع شعار الإسلام أو الدعوة إلى تحكيمه وعقب إلغاء مصطفى كمال للخلافة سنة ١٣٤٣هـ، وفيما كان الرأي العام في العالم الإسلامي مأخوذاً بهول الصدمة طلع رجل أزهري بفكرة غريبة مريبة يقول المستشرق شمتز إنها كان لها الفضل في تخفيف وطأة ما فعله أتاتورك على مشاعر المسلمين، وهو علي عبد الرازق صاحب كتاب الإسلام وأصول الحكم حيث جمع عبد الرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات، وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد، وسرد نبذا من سير الطواغيت ونتفا من أقوال متملقيهم، وعمد إلى مغالطات عجيبة كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالمسيحية المحرفة علاقة روحية بين العبد لا صلة لها بواقع الحياة ولم يفت الشيخ أن يدلنا على أحد مراجعه الرئيسية لنستكمل ما يكون عجز عن بيانه فيقول في الكتاب نفسه :وإذ أردت مزيداً في البحث فارجع إلى كتاب الخلافة للعلامة السير توماس آرنولد ففي الباب الثاني والثالث منه بيان

ممتع ومقنع ثم يقول: تكلم عيسى بن مريم عليه السلام عن حكومة القياصرة وأمر بأن يعطي ما لقيصر لقيصر وكان ما جرى في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام من ذكر الإمامة والخلافة والبيعة الخ لا يدل على شئ أكثر مما يدل عليه المسيح حينما ذكر بعض الأحكام الشرعية عن حكومة قيصر.

ويقول: إن يكن أرادوا بالإمامة والخلافة ذلك الذي يريده علماء السياسة بالحكومات كان صحيحا ما يقولون من أن إقامة الشعائر الدينية الشعائر فقط وصلاح الرعية يتوقفان على الخلافة بمعنى الحكومة في أي صورة كانت الحكومة ومن أي نوع، مطلقة أو مقيدة فردية أو جمهورية استبدادية أو دستورية أو شورية، ديمقراطية أو اشتراكية أو بلشفية، لا ينتج لهم الدليل أبعد من ذلك، أما إن أرادوا بالخلافة ذلك النوع الخاص من الحكم يعني الحكم الإسلامي دليلهم أقصر من دعواهم وحجتهم غير ناهضة ولسنا بصدد استعراض ذلك الكتاب المريب، لكن تجدر الإشارة إلى أنه كان له آثار بعيدة فقد ترجم إلى اللغات الأجنبية وأصبح مرجعاً معتمداً للدراسات الإسلامية هناك، وقام بتقريظة والثناء عليه كل المهتمين بهذه الدراسات في الغرب، وظهرت آثاره في كتاباتهم وهلل له سماسرة الاستعمار من الكتاب والصحفيين باعتبار مؤلفه عالماً متحرراً متنوراً، ووضعه البعض على رأس مرحلة فكرية عصرية الخ ووجدت الأحزاب السياسية فيه ضالتها المنشودة فلم تعد تتحرج من إعلان

انتمائها للاتجاهات السياسية اللادينية شرقيها وغربيها، وبراءتها من الدين والمتدينين أما الكتب التي ألفت في الرد عليه فقد حاصرتها الدوائر الاستعمارية وأهملتها وسائل الإعلام حتى لم يكد يظهر لها صدى عند غير القلة المخلصة وفي الفترة التي أعقبت إلغاء الخلافة كانت معظم أجزاء العالم الإسلامي خاضعة للاستعمار، وكانت مخططاته الماكرة تنفذ بدقة وعناية وكانت الحركات الإسلاميه في كل قطر تسعى للخلاص من براثنه هادفة إلى بعث إسلامي جديد، لكن الاستعمار والأحزاب السياسية غير الإسلامية كانت إلى عكس ما تهدف إليه تلك الحركات فيما كانت مصر مؤهلة لقيادة العالم الإسلامي من جديد وكان الاستعمار يلم شعثه لمغادرتها ثارت زوبعة حول صلة الإسلام بالحكم تزعمها كتاب نصارى أمثال سلامة مسى ولويس عوض وأناس يدعون الإسلام من بين هؤلاء خالد محمد خالد الذي كتب كتابه من هنا نبدأ هادفاً إلى ما قصده علي عبد الرازق من قبل، ولكن بأسلوب أذكى وأحدث ومن قبله كان الشيخ عبد المتعال الصعيدي يحاول هدم الحدود الإسلامية المستقرة في الكتاب والسنة زاعما أن الأمر بها للندب للوجوب وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم إلى آخر هذا اللغو المتهافت ثم ظهرت أفكار كثيرة تبرز انتهاج الطوائف الغربية في الحكم والعمل بالقوانين الجاهلية، وأسهمت وسائل الإعلام لاسيما الصحافة في نشر وتعميم تلك الأفكار حتى استحكمت غربة الشريعة وخفت صوت المكافحين عنها، بل أصبح في نظر الغالبية

العظمى رمزاً للرجعية والتأخر واكتفي البعض بالقول بأن الدين للواقع وأن التفكير السياسي الإسلامي في أزمة، وأنه لا بأس من اشتقاق القوانين والتشريعات والقوانين الغربية سواء هذا من الوجهة الفكرية أما من الناحية العملية فإن واقعنا المشاهد اليوم لهو خير دليل على ما بلغته العلمانية من التغلغل في الحياة الإسلامية، فعلى الرغم من فشل التجارب الديمقراطية وإخفاق المحاولات الاشتراكية فإن الرقعة الإسلامية العريضة ما تزال تتخبط وتضطرب بين شعارات وأنظمة ومناهج الغرب اللا دينية، أما الشريعة الإسلامية فقد غابت لا من الواقع فحسب بل من الشعور والوجدان على النحو الذي صوره جب بدقة إذ يقول إن التعليم عن طريق المدارس العصرية والصحافة قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام علمانيين إلى حد بعيد، وذلك هو اللب المثمر في كل ما تركته محاولات الغرب من أجل حمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار فالواقع أن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلاً من قوته وسلطانه، لكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية فقد مكانته، فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه، وهي في كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده، وتعاليمه تعارضاً صريحاً لكنها تشق طريقها إلى المجتمع الإسلامي في قوة وعزم فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم اتجاه سياسي يخالف الإسلام ولا أدب إلا الأدب الديني ولا أعياد إلا الأعياد الدينية ولم يكن ينظر إلى العالم

الخارجي إلا بمنظار الدين وكان الدين هو كل شئ بالقياس إليه أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ما وراء عالمه المحدود وصار يقرأ مقالات في مواضيع مختلفة الألوان لا صلة لها بالدين بل أن وجهة نظرالدين فيها لا تناقش على الإطلاق، وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد هي الفيصل فيما يعرض له من المشاكل، لكنه مرتبط في المجتمع الذي يحيا فيه بقوانين مدنية لا يعرف أصولها ومصادرها، لكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن وبذلك لم تعد التعاليم الدينية القديمة صالحة لإمداده بحاجاته الروحية فضلاً عن حاجاته الاجتماعية بينما أصبحت مصالحة الدينية وحاجاته الدنيوية هي أكثر ما يسترعي انتباهه، وهكذا فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية،وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محدودة،وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه، وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين، والذين ساروا فيه عن وعي وتابعوا طريقهم فيه عن اقتناع قلة أقل، وقد مضى هذا التغر إلى مدى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه، وقد يبدو الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة إلى التعليم ومع تزايد الاقتباس من الغرب أن يُصدّ هذا التيار أو تعاد إلى الإسلام مكانته الأولى من السيطرة التامة التي لا تناقش على الحياة السياسية والاجتماعية وينتهي جب إلى القول أن العالم الإسلامي سيصبح خلال فترة قصيرة جداً علمانياً في كل مظاهر

حياته ويقول في موضع آخر وكأنما هو يستدرك على ما أوردنا وكان طبيعياً أن يبقى الإسلام وقد يكون الدين الرسمي للدولة، ولكنه سلب الحقوق التشريعية ونزل إلى مكانة الديانة المسيحية في الدول الأوروبية وقد اختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل إقليم

ثانياً ـ في التربية والثقافة: قبل أن يصطدم الغرب المتحضر بالشرق المتخلف كانت التربية في الأخير متأخرة أسلوباً وموضوعاً، والثقافة جامدة ومحدودة ونصيب الأمة الإسلامية من المعرفة ينحصر في بقايا التراث الفكري الذي دونه علماء الكلام والفقه واللغة في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية تلك البقايا التي تسمى الكتب الصفراء أو الثقافة التقليدية، وفي أحسن الأحوال الثقافة الأصلية كما في بلاد المغرب.

ولا شك أن هذه البقايا تشكل جانباً من جوانب الثقافة الإسلامية في مفهومها الواسع بغض النظر عن مدى صدقها في تمثيل حقيقة التصور الإسلامي المفترضة في ذلك الجانب لكن من المؤكد أن ذلك لا يصح اعتباره الصورة الكاملة المثلى للثقافة الإسلامية، ومن ثم فإن الحكم على الإسلام من خلال النظرة لذلك الجانب وحده خاطئ يقيناً ولسنا الآن بصدد الحديث عن مفهوم العلم في التصور الإسلامي لكن الذي يهمنا هو إيضاح أن المستوى العلمي للمسلمين في القرن الماضي لا يمثل هذا المفهوم أبداً بل إنه في بعض الأحيان يتنافى معه تمام المنافاة ولنأخذ شاهداً قريباً لذلك من الأزهر الذي صبت عليه اللعنات لجموده وتخلفه كان الأزهر منذ

تأسيسه يدرس في حلقاته المكتظة الفلك والجبر والهندسة والطب كما يدرس الفقه والنحو والحديث سواء بسواء بلا حرج ولا غضاضة وظل كذلك إلى عصر ليس ببعيد، فها هو الجبرتي يورد في تاريخه أسماء كثيرين ممن نبغوا في هذه العلوم بالنسبة لعصرهم منهم والده وإن كان مستواهم متخلفاً بالنسبة لما هو عليه حال معاصريهم في الغرب، ذلك أن هؤلاء يمثلون الدفعات الأخيرة لحضارة منهارة، في حين يمثل أولئك الغربيون طلائع متقدمة لحضارة فتية ومع ذبول الحضارة الإسلامية التدريجي تقلص ميدان العلم ليقتصر على العلوم الضرورية التي لا يمكن للمجتمع الإسلامي أن يحيا بغيرها، وأهملت العلوم الأخرى لا تحريماً لها لكن عجزاً وتهاوناً يميلها الواقع المنهار من كل ناحية وفي فترة الركود العلمي تلك ولدت أجيال بررت ذلك العجز والتهاون ثم استساغت الانغلاق وفسرت الدين نفسه تفسيراً ضيقاً وحددت علومه تحديداً نابعاً من واقعها المظلم لا من حقيقة الدين وجوهره وفيما كانت الأوضاع تنحدر إلى الهاوية تلقت الأمة ضربة عنيفة من نابليون طليعة الحضارة الغربية الكافرة أيقظتها هذه الضربة من نومها لكنها أفقدتها صوابها ولقد فتح المسلمون أعينهم على وسائل جديدة، وإمكانيات حديثة تسندها علوم ناهضة، وتعززها بحوث دائبة، وكان من الممكن عقلاً أن ينهضوا من كبوتهم مستفيدين مما رأوا، ولكنهم واقعاً لم يفعلوا ذلك لأنهم:

أولاً:لم يكونوا يملكون القدرة على التمييز وتقدير التجربة حق قدرها ٠

ثانياً :كان اقتران العلوم الجديدة بتلك الحملة الصليبية الوحشية التي انتهكت حرمة الأزهر نفسه دافعاً لمقت تلك العلوم ورفضها إطلاقاً.

وحدث نفور شديد بين علم الأزهر الذي كان يعتقد أنه يمثل الثقافة الإسلامية أصدق تمثيل وبين علم الغرب الذي بدا لأعين الأزهريين غريباً خاصاً بالكفار ومن هذا الخطأ التاريخي تقريباً نشأ الازدواج الخطر في العالم الإسلامي :تعليم ديني ضيق محدود، وتعليم لا ديني يشمل أنشطة الفكر كلها وقد حاول محمد على في أول الأمر أن يدخل العلوم الحديثة ضمن مناهج الأزهر إلا أنه خشي معارضة الأزهريين، فقام على الفور بإنشاء نظامه التعليمي الحديث، وهكذا انقسم التعليم في مصر إلى نظام ديني ونظام مدني حديث ولما كان اللقاء بين شيخ الأزهر وجومار مستحيلاً كان لا بد من الصراع بين أتباع وثقافة كل منهما، ورأى أبناء جومار أن القضاء على الأزهر يكون ببقائه جامداً معزولاً عن الحياة ومتغيراتها واستصدروا من الخديوى إسماعيل سنة ١٨٧٢ القانون الخاص بتنظيم الأزهر وإصلاحه وتنص فقرة ب منه على تحديد الدراسات التي تعطى بالأزهر بإحدى عشرة مادة هي :الفقه وأصول الدين والتوحيد والحديث والتفسير والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق ووافق ذلك نفوس علماء الأزهر، وبذلك قطع الطريق أمام وعي ذاتي لإصلاح الأزهر حقيقة أما المدارس الحديثة التي أنشأها محمد على وأولاده فقد كانت مجالاتها أرحب وفرصها أوسع، وكانت

البعثات إلى الخارج قائمة على قدم وساق والناحية الأشد خطورة هي الوسائل التي ينتهجها كلا النظامين التعليميين النظام الديني كما سمي يقوم في الكتاتيب المتفرقة في القرى والأمصار للمرحلة الابتدائية، والجامع الأزهر للمرحلة العليا والكتاتيب يدرس فيها فقهاء يجتمع حولهم الطلبة في مظاهر ريفية يحملون الألواح القديمة والمصاحف، والفقيه يتوسطهم بعمامته وفي يده عصا طويلة، ويقوم بتلقينهم بطريقة تغاير روح التربية الإسلامية المأثورة التي كانت في عصرها أرقى أساليب التربية العالية وطلاب الجامع نفسه يتحلقون في أروقته مفترشين الحصر البالية يتصدرهم شيخ لا يكاد يختلف في مظهره عن فقيه الكتاب وعندما يكمل الطالب دراسته تكون شهادته إجازة خطية يكتبها له الشيخ بيده ناعتاً تلميذه بالألقاب العريضة أما إيرادات هذا التعليم فتأتي من هبات وصدقات المحسنين وأوقاف المتبرعين وهدايا رجال الدولة، أى أنها فوق كونها غير منظمة يصحبها أيضاً المن والرياء وعلى عكس ذلك كانت المدارس الحديثة ولها أبنية فخمة ووسائل متقدمة وميزانيات ثابتة ومناهج حديثة ويديرها خبراء فرنسيون يشعر مظهرهم وتصرفاتهم بالحداثة والتحضر ولندع النظام الأزهري على جموده الذي سيظل عليه حتى ينسف كلية ولنتابع سير التعليم اللا ديني واتجاهاته الثقافية.

يتحدث جب عن ذلك قائلاً وكانت المصادر الأولى التي أخذ الفكر الأوروبي يشع منها هي المدارس المهنية التي أنشأها محمد على

والبعثات العلمية التي أرسلها إلى أوروبا ويذكر منها مدرسة الألسن التي كان يشرف عليها رفاعة الطهطاوي(١٨٠١-١٨٧٣)وهو تلميذ جومار البار ثم كانت الموجة الثانية من موجات التغريب في عهد الخديوي إسماعيل،ويمكننا أن نختار محمد عثمان جلال(١٨٢٩-١٧٩٨)تلميذ رفاعة مثالاً للجناح المتقدم من هذه الحركة، فقد كانت أبرز آثاره الأدبية ترجمات لبعض المؤلفات الفرنسية ذات الشهرة، مثل بول وفرجيني، وخرافات لافونتين وبعض ملاهي موليير، والأمر الذي يجدر التنويه به في عمله هذا ليس هو فكر الترجمة في ذاتها بل روح التجديد التي تكمن وراءها فقد ترجم لافونتين إلى شعر سهل لا تصنع فيه ولا رهق، إلا أنه حين ترجم ملاهي موليير كتبها بلهجة العامة في مصر، ولم يكن الوقت قد حان بعد للإقدام على مثل هذا العمل الجرىء غير أن ما تجلى في تلك الخطوة من انفكاك تام من أسر الماضي كان دليلاً على روح العصر، قال الخديوي إسماعيل أن مصر أصبحت قطعة من أوروبا لذا كان لا بد للأدب المصري من أن يعبر عن استقلاله عن التقاليد الآسيوية والأفريقية وكانت حركة التغريب الأولى فرنسية الاتجاه، فلما أحتل الإنجليز مصر أصبحت الحركة الإنجليزية واتخذت طابعاً جديداً أعمق وأوسع، فقد كان الاحتلال الإنجليزي يهدف إلى ما ذكره اللورد ميكالي عن الهند: يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجماناً بيننا وبين ملايين من رعيتنا وستكون هذه الجماعة هندية في اللون والدم إنجليزية في الذوق والرأى واللغة

والتفكير فالاحتلال كما قال أحد شعراء المسلمين في الهند أذكى من فرعون الذي استخدم سياسة قتل الأولاد، ولم يفتح لهم مدارس وكليات تقتلهم من حيث لا يشعرون كما فعل المحتل فقد افتتح مدارس غربية قلباً وقالباً في المراكز الثقافية الكبرى للعالم الإسلامي ورسموا المخططات لاستئصال التعليم الأصلي من هذه المدارس الكليات التبشيرية التي أنشئت في لاهور وبيروت واسطمبول والقاهرة وغيرها، عدا المدارس الأقل شأناً التي انتشرت في الهند وبلاد الشام ومصر وبصفة أظهر في بلاد المغرب ولا شك أن هذه المدارس كان لها أعظم الأثر في توجيه النهضة الفكرية وجهة لا دينية وتوسيع الهوة بين التعليم الديني واللا ديني كما شجع الاستعمار واحتضن الحركات الفكرية والأدبية التي قام بها النصارى لاسيما الشاميون حيث كانت جمعياتهم وصحفهم في الشام ومصر من أشد أجنحة التغريب تأثيراً أما احتواء التعليم الأصلي والسيطرة عليه فأقوى الشواهد عليه المخطط البطيء الماكر، الذي وضعه كرومر ووزيره القسيس دانلوب في مصر،والذي استخدم أحدث ما وصلت إليه التربية وعلم النفس في عصره لإخراج جيل ممسوخ قابل للاستعباد.

فتح دانلوب مدارس حكومية ابتدائية تدرس العلوم المدنية واللغة الإنجليزية لغة المحتل وتخرج موظفين كتبه في الدواوين التي يحتلها ويديرها الإنجليز،يقبضون رواتب تعد بالجنيهات لا بالقروش ولم يكن

الأمر في حاجة إلى مزيد من الإغراء فمن ذا الذي يبعث بابنه بعد اليوم إلى الأزهر إلا الفقراء العاجزون عن دفع المصروفات، وهو له المستقبل المضمون في وظيفة الحكومة حيث يرطن بلغة السادة المحتلين؟ وانصرف القادرون من ذوات أنفسهم عن الأزهر، واتجهوا إلى مدارس الحكومة بعد الثورة الأولى التي أثارها الحس الباطني المسلم على هذه المدارس الكافرة التي لا تعلم القرآن وأصبح هؤلاء المتعلمون طبقة جديدة تستمد طبقيتها من أنها من أبناء الأسر أولاً، ومن مركزها الاجتماعى في وظيفة الحكومة ثانياً، ومن التشجيع الظاهر والخفي الذي تلقاه من سلطات الاحتلال بالإضافة إلى أسلوب التربية السيئ المتعمد لم يشأ دانلوب أن تخلو المدارس تماماً من الدين ولو فعل ذلك لكان أفضل بل قرر مادة دين لكنه جعلها مادة ثانوية في قيمتها الدراسية ثم أن حصصها كانت توضع في نهاية اليوم المدرسي وقد كل التلاميذ وملوا وحنوا إلى الانفلات من سجن المدرسة البغيض إلى فسحة الشارع أو رحب البيت،وكانت هذه الحصص توكل لأسن مدرس في المدرسة، يسعل ويبصق، ويمثل أمام التلاميذ ضعف الحياة الفانية المنهارة فيرتبط الدين في وجدانهم بالعجز والفناء والشيخوخة،كما يرتبط بالملل والضجر والنفور وقرر كذلك لغاية خبيثة مادة لغة عربية وفي الوقت الذي كان فيه مدرس اللغة الإنجليزية يتقاضى مرتباً شهرياً إثني عشر جنيهاً كاملة كان زميله مدرس اللغة العربية لا يقبض سوى أربعة جنيهات، مما جعل

الفرق بينهما في المكانة الاجتماعية شاسعاً، وجعل اللغة العربية في ذاتها موضع الاحتقار والازدراء وليس أنكى من ذلك إلا المناهج التي كانت تدرس في مدارس الحكومة التي كانت مملوءة بالطعن والسموم فيما يتعلق بالإسلام وتاريخه وحضارته، ومفعمة بالتقدير والإكبار الذي يصل درجة التقديس فيما يتعلق بأوروبا وتاريخها وحضارتها ومن بين طلاب هذه المدارس تنتقى نخبة معينة للابتعاث إلى أوروبا وهناك يتم المسخ الكامل لها،لكي تعود إلى بلادها فتقبض على مقاليد الفكر والثقافة وتوجهها حسب إرادة المحتل والعمل نفسه مع اختلاف في الوسائل سلكته فرنسا في الشام وبلاد المغرب، وقد نشأ نتيجة لهذه التربية جيل مقطوع الصلة بدينه،مفتون بالغرب وتياراته الثقافية المختلفة التي تتفق في شيء واحد هو تحللها من الالتزام بالدين، فمن أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي، ومن أكبر عواملها نفوذ الغرب، فقد بلغت هذه الحركة أوجها في أوروبا من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى، وهكذا شأن نهضة أوروبا وتقدمها،وقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب واطلعوا على روح أوروبا وقيمها وأعجبوا بها إلى أبعد حد، وينطبق هذا خاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوروبا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام، وهم سبب استيراد كثير من أفكار الغرب وقيمه إلى العالم الإسلامي، وقد حازت قصب السبق في المضمار تلك المعاهد الثقافية التي قامت بتربية

جيل بأكمله على النمط الغربي الحديث،ومما صدره الغرب إلى العالم الإسلامي تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع في الأهمية بمكان، والاتجاهات العقلية الدقيقة الفجة والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث، ويفوقها في ذلك تأثير معاهد الغرب الحقوقية والسياسية والاجتماعية الجديدة ونفوذها الزائد، ومنها ما يسلط إجباراً وما يحاول إجباراً وما يحاول تسليطه، وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار رحب به البعض الآخر، وبعضهم قد وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً، وبعضهم قد رحب بهذا التيار بدافع من أنفسهم، وأنتج ذلك أن كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة، وخضعوا لها بالتدريج، وهكذا استمرت عملية التغريب بسرعة وقوة بالغتين ولم يمض على سيطرة الاحتلال فترة من الزمن حتى كان العالم الإسلامي خاضعاً لتأثير التربية والفكر خضوعاً يتفاوت حسب الأقاليم المختلفة.

ففي تركيا التي لم تحتل احتلالاً مباشراً بلغ التأثير ذروته في الردة العقائدية والفكرية العنيفة التي انتهجها أتاتورك لطمس الإسلام بيد من حديد وفي الهند فقدت الثقافة الإسلامية ريادتها وتقوقعت في المؤسسات الأهلية الصغيرة، وضاع كثير من نشاطها في زحمة الصراع الداخلي والخارجي أما في العالم العربي فلعل أصدق وصف لحاله هو ما قاله توينبي من أن الصراع الفكري فيه بين الأفكار الغربية والإسلام لم ينتج

عملاً غربياً ناجحاً مثل ذلك الذي في تركيا وإنما كان هجيناً لا هو غربي ولا هو إسلامي وقال أحد المستشرقين إن في القاهرة مائتي مطبعة وسبع عشرة، تصدر ما معدله كتاب أو نشرة واحدة في اليوم ثم يستدرك موضحاً أن أكثرية ما يصدر هو ترجمات لقصص غربية وهذا يعطينا دليل على مدى ما وصلت إليه الهجنة، فإن أمة تتجه إلى القصص الغرامية في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى ترجمة العلوم التطبيقية والأخذ بأسباب النهضة لجديرة بهذا الوصف وقد أخرج هذا الهجين الممسوخ دعوات ونتائج سيئة نذكر منها على سبيل التمثيل ما يلي:

١ ـ الدعوة إلى الارتماء في أحضان الغرب وأخذ حضارته دون وعي ولا تمييز وقد تزعم هذا الاتجاه كثير من هجناء الفكر، منهم صاحب كتاب مستقبل الثقافة في مصر الذي يقول: بل نحن قد خطونا أبعد حداً مما ذكرت فالتزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع التزامنا هذا كله أمام أوروبا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وان نحيي النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولوجدنا أمامنا عقاباً لا تجتاز ولا تذلل عقاباً نقيمها نحن لأننا حراص على التقدم والرقي، وعقاباً تقيمها أوروبا لأننا عاهدنا على أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة

الحديثة ويقول عن التعليم خاصة من الناس من يريد التعليم مدنياً خالصاً، وأن لا يكون الدين جزءاً من أجزاء المنهج المقومة له، على أن يترك للأسر النهوض بالتعليم الديني وان تقيم الدولة في سبيل هذا التعليم من المصاعب والعقبات ما يجعله عسيراً، ومنهم من يرى أن التعليم الديني واجب كتعليم اللغة والتاريخ القومي، لأنه جزء مؤسس للشخصية الوطنية، فلا ينبغي إهماله ولا التقصير فيه، وواضح جداً أن هذا الرأي الأخير هو مذهب المصريين، ومن غير المعقول أن يطلب إلى المصريين، الآن أن يقيموا التعليم في بلادهم على أساس مدني خالص وان يترك الدين للأسر ومثل طه حسين سلامة موسى الذي يقول متحدثاً عن نفسه :إنه شرقي مثل سائر مواطنيه ولكنه ثار على الشرق عندما أيقن أن عاداته تعوق ارتقاءه،ودعا إلى أن يأخذ الشرقيون بعادات الغربيين كي يقووا مثلهم، لكنه لم يجن من هذه الدعوة غير الكراهية والنفور، وأحس بالتناقض العميق بينه وبين المجتمع وأهدافه الثقافية والسياسية والروحية تنأى عن عادات مجتمعة، إنه ليخالف سائر الكتاب إذ هو إن كان يكتب بالعربية فإنه يفكر تفكيراً أوروبياً ومن هؤلاء أحمد لطفي وصهره إسماعيل مظهر وقاسم أمين.

٢-احتقار الماضي الإسلامي وتربية الأجيال تربية لا دينية حديثة :مثل ما قال مؤلف كتاب مصر ورسالتها عندما فتح العرب مصر عام ٦٤٠ كانت ولاية بيزنطية تحكم من القسطنطينية وعندما غزا الفرنسيون مصر عام

١٧٩٨ وجدوها ولاية عثمانية تحكم من نفس القسطنطينية التي حملت اسماً جديداً وهو اسطنبول، ولم يكن حالها عام ١٧٩٨ بأحسن من حالها عام ٦٤٠، كان الناس في بؤس وذل وكان البلد في خراب فكأن أحد عشر قرناً من تاريخ هذا البلد ضاعت سدى، كأن هذه السنوات الكثيرة قد انقضت ونحن نيام بعيدين عن الوجود، تصور اثني عشر قرناً ونصف تذهب سدى قد يقال قامت خلالها دول وأمجاد ولكنها تلاشت كأن لم تغن بالأمس وعاد المصري بالضبط كما كان في أواخر عصر الرومان ما الذي حدث؟ الذي حدث أننا تخلينا عن رسالتنا واتجهنا نحو الشرق فاختل ميزان تاريخنا وكان ذلك الانكسار العظيم وبناء على هذه الأفكار طولب بتربية الأجيال الجديدة تربية لا صلة لها بذلك الماضي، وها هي ذي بعض نصوص من نشرة مؤتمر التربية العربي المسمى الحلقة الدراسية العربية الأولى للتربية وعلم النفس: يجب أن تعمل التربية العربية على خلق خصائص جديدة في الشخصية العربية الناشئة بحيث تستأصل منها رواسب العصر التركي واستغلال الاحتلال وتصنع بدلاً منها خصائص مضادة تتحقق بها القومية العربية الشاملة في المستقبل القريب فالعربي يجب أن يؤمن بفلسفة التطور ويعتبر نفسه مسئولاً عن المستقبل لا عن الماضي ومسئولاً أمام الأجيال القادمة لا الموتى.

وعن التربية التقليدية يتحدث المحاضر نفسه عن التربية الإسلامية باحتقار شديد ممثلاً لها بقوله كان الطفل يشترى من أسواق النخاسة ثم

يدخل القلعة وتتبع معه طريقة التلقين الدقيق فيخرج منها بعد أعوام قليلة مسلماً متعصباً لإسلامه ومملوكاً يعتقد أنه ملك للأمير الذي اشتراه ورباه إلى أن يقول لهذا كانت طريقة التلقين سيئة السمعة كطريقة تربوية، لأنها تؤدي إلى تعصب حيواني عاطفي غير قائم على الفكر والإقتناع وعلى لسان محاضر آخر يقول في المؤتمر: تجاربنا الخاصة إن أخطر ما تتعرض له سيكولوجية الأطفال في هذا الصدد هو التعصب الديني ويشرح مفهوم الدين كما يتصوره: الدين أداة لفكر يسند المجتمع عن طريق القدوة والتعليم والإرشاد والترغيب والترهيب والتربية الدينية الخاطئة قد تعمل في تزييف الأهداف وفي جعلها أداة للشر الغريزي، وكثيراً ما يستغل الدين لأغراض السياسة الحزبية، وربما نتج عن هذا الارتباط بين الدين والسياسة أخطر ما يهدد العلاقات والروابط القومية ويرى الكثيرون أن الكتب السماوية ليس من أغراضها أن تكون موسوعات يبحث المؤمنون فيها عن مشاكل العصر كي يجدوا فيها حلاً لمشكلات العمال في القرن العشرين على سبيل المثال، بل في أداة تلهم المؤمن لاستعمال الفكر في حل مشاكله الطارئة.

٣- تطوير الأزهر (تطويعه): كان الأزهر رغم تخلفه وتقصيره في إبراز الثقافة الإسلامية المتكاملة قلعة إسلامية يحسب لها أعداء الإسلام كل حساب، وكان فيه رجال يلتهبون غيرة على الإسلام ويجابهون الطاغوت داخلياً كان أم خارجياً بكل جرأة فهو الذي قاوم الحملة الفرنسية وقتل أحد

منتسبيه قائدها، وهو الذي تزعم الثورة الشعبية سنة ١٩٩١، وفوق هذا كان رابطة إسلامية عامة تهتز لما يحدث على الرقعة الإسلامية الكبيرة لذلك ظل الأزهر سنين طويلة محط المقت ومصب اللعنات من قبل دعاة التغريب واللا دين، حتى جعلوه رأس المشاكل الثقافية في مصر والعقبة الكؤود في سبيل النهضة وأعظم من تجرأ على الأزهر في القرن الماضي عن حسن نية وربما عن شعور بالنقص هو خريجه الشيخ محمد عبده ثم جاء طه حسين ولطفي السيد وأضرابهما مبتدئين من حيث انتهى محمد عبده وجيله، وطالبوا بإلحاح أن تزال هذه الصخرة العتيقة التي تعترض الجسر الثقافي العريض الذي يمتد من أوروبا إلى مصر عابراً البحر الأبيض المتوسط، أى أن يستبعد آخر أثر شرقي من مصر التي اكتشفت حسب رأيهم أن هويتها غريبة ١٠٠% وكان على الأزهر إما أن يساير الموجه العاتية فيفقد رسالته أو أن يحكم على نفسه بالفناء ورأى أذيال الغرب والمتحررون من علماء الأزهر أن الوسيلة المثلى للخروج من الأزمة هي تطوير الأزهر، أي أن يفقد رسالته في سبيل الاحتفاظ بوجوده فصدرت قوانين من سنة ١٩٣٦ حتى سنة ١٩٦١ بشأن تطوير الأزهر واستطاع دعاة اللا دين أن يدخلوا تاء التأنيث على الجامع الأزهر وبذلك تحول من وكر لثقافة العصور الوسطى إلى مركز ثقافي عصري مدني أما أثر هذا الانتصار للثقافة المستوردة في معاهد الثقافة الإسلامية خارج مصر التي كانت تعد الأزهر أباً روحياً أو على الأقل سنداً قوياً لها فقد كان

سريعاً وواضحاً إذ تم تطويع البقية الباقية منها إما بدوافع ذاتية وإما بقوانين إجبارية.

٤-الدعوة إلى العامية:ليست اللغة العربية أداة الثقافة الإسلامية فحسب، بل مقوم من مقومات الشخصية الإسلامية وليس غريباً أن يشن المستشرقون والمبشرون عليها هجمات شرسة تتعلق بألفاظها وتراكيبها ومقدرتها على مسايرة العصر، فكانوا يرومون هدم القرآن بهدم لغته ليصبح كالإنجيل اللاتيني لا يقرؤه إلا رجال الدين والمؤسف حقاً أن يتصدى لمقاومة العربية أناس يحملون أسماء إسلامية كانت الفصحى سبب بروزهم الفكري، ويكتبون بها سمومهم الرامية إلى إلغائها، وان يعد ذلك جزءاً من التفكير الاصلاحي وهدفاً من أهداف المصلحين وكان زعيمهم الشيخ محمد عبده محقاً في رفض أسلوب الكتابة القائم على الصناعة اللفظية والدعوة إلى كتابة سلسلة حرة بلكنة عامية دون أن يدري أنه فتح الباب لهدم العربية حيث دعا إلى تصحيح الخطأ المشهور من أخطاء النحو والصرف التي كانت تتخلل الكتابة في عصره وعلى هذا الأساس وضعت القاعدة الخاطئة صحيح مشهور من فصيح مهجور ثم توسع فيها حتى جاء يوم طولب فيه بهدم النحو العربي كله وكان عبد الله النديم تلميذ محمد عبده ممن أسهم في هذا المجال لا بالدعوة إلى العامية بل باستخدامها في لغة الصحافة، فمجلة الأستاذ التي كان يصدرها تحتوي في كل عدد مقالاً أو أكثر باللهجة الدارجة ثم جاء الجيل المستعبد

للغرب معلناً عداوته للثقافة الإسلامية واللغة العربية وأشهر زعمائه أحمد لطفي السيد،وزميله ورفيق عمره عبد العزيز فهمي، وزوج أخته إسماعيل مظهر ثم صديقه الحميم طه حسين ولعل تسليط شيء من الضوء على حياة لطفي السيد أستاذ الجيل كما سموه ومحور هذه الدعوى يعطينا لمحة عن دوافع الفكرة وأهدافها.

كان لطفي السيد من أخلص تلاميذ محمد عبده له وأتيحت له الفرصة أكثر من شيخه إذ عاش بعده ما يزيد على أربعين سنة فعمر أكثر من تسعين عاماً وأهم مناصبه الثقافية توليه إدارة الجامعة المصرية عند تأسيسها، ووزارة المعارف آخر عمره أما أعماله السياسية فقد كان أحد زعماء حزب الأمة واشتهر بعداوته لفكرة الجامعة الإسلامية ورفعه شعار مصر للمصريين وشعار سياسة المنافع لا سياسة العواطف ولا يستطيع الكاتبون عن حياته أن يخفوا أنه فاوض كتشنر ثم جراهام على أن تنفصل مصر عن تركية وتصبح دولة مستقلة يحكمها الخديوي تحت وصاية بريطانية أما فكره فكان متأثراً جداً بداروين ومل وروسو وإضرابهم من الغربيين وكان مع كل ناعق من دعاة التفرنج والعصرية فقد حظيت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة من تأييد لطفي السيد بما لم تحظ بها من كاتب أو صحفي آخر وعندما أصدرت الحكومة قراراً بنقل صديقه وشريك دعوته طه حسين من الجامعة بسبب الضجة التي ثارت حوله لم يسع لطفي السيد إلا أن يقدم استقالته من منصب وزير المعارف

احتجاجاً على ذلك ومع زعمه أن الفصحى معقدة وقديمة نراه يمضي ربع قرن من حياته في ترجمة كتب أرسطو وقد ذكر مؤرخ حياته حسين فوزي النجار بعض الحوادث التي تدل كما يرى على أنه كان لا يؤمن بالغيبيات والقوى الخفية وقد علل لطفي السيد تأخر مصر وتقدم الغرب بأن مصر تستعمل لغتين للثقافة وأخرى للتخاطب، والحل الذي رآه وقدم له الاقتراحات الكثيرة هو النزول بالفصحى إلى مستوى العامية حتى يتم مع الزمن توحيد اللغتين في لغة واحدة هي العامية أما زميله الأول عبد العزيز فهمي فقد كان أكثر جرأة منه حين دعا إلى كتابة العربية بحروف لاتينية وهي الدعوة التي ولدت لحسن الحظ ميتة .

أما صديقه طه حسين فقد كان لدعوته للعامية صدى واضحاً لكتابات المستشرقين وكذلك آراؤه في الشعر الجاهلي، ورحم الله الرافعي فقد فضح هذه الدعوى وعرى كاتبها فقد كان كل دعاة العامية أناساً مشبوهين وصلتهم بالدوائر الاستعمارية واضحة وذلك ما يؤكد أنها كانت جزءاً من المخطط اليهودي الصليبي للقضاء على الإسلام، بل من المؤكد أن الدعوة للعامية إنما ظهرت أصلاً من أفكار المستعمرين وفي أحضان المبشرين يتضح ذلك من أسماء دعاتها الأوائل أمثال بوريان وماسبيرو وجدير بالذكر أن الذي خلف عبد العزيز فهمي في المجمع اللغوي هو توفيق الحكيم الذي دعا إلى قاعدة سكن تسلم على أن الفكرة لم تقتصر

على مصر فقد كان لها أذيال في الشام منهم المتطرف كسعيد عقل ومنهم المتدرج كبعض المهجرين.

٥-اقتباس الأنظمة والمناهج اللا دينية من الغرب فلم يقتصر الأمر على مناهج كرومر ودانلوب، فقد كان أذيال الفكر الغربي لا يقلون عنهما رغبة في صبغ مصر والعالم الإسلامي بالصبغة اللا دينية الغربية.

وكان من أهداف أعداء الإسلام ما أوصى به مؤتمر القاهرة التبشيري سنة ١٩٦٠ من وجوب إنشاء جامعة علمانية على نمط الجامعة الفرنسية لمناهضة الأزهر الذي قالوا أنه يهدد كنيسة المسيح بالخطر وقد قام الأذيال بتنفيذ المهمة إذ أنه بعد انتهاء المؤتمر بسنتين تقريباً أسس سعد زغلول وأحمد لطفي السيد وزملاؤهم الجامعة المصرية، وكان النص الأول من شروط إنشائها هو ألا تختص بجنس أو دين بل تكون لجميع سكان مصر على اختلاف جنسياتهم وأديانهم فتكون واسطة للألفة بينهم.

وهذا الشرط الجائر في جامعة تقوم في بلد مسلم وعلى نفقات شعب مسلم انعكست آثاره على مناهج التعليم في الجامعة، فلم يكن من بينها شيء من علوم الإسلام احتراماً لمشاعر القلة غير المسلمة، وهكذا كان التعليم الجامعي الحديث علمانياً من البداية، وكان نتاجه تلك الجموع المستعبدة للغرب، النافرة من دين آبائها وأجدادها ويكفي في هذه العجالة

أن نلم بمادتي التاريخ والمطالعة في معظم المناهج المعاصرة أما التاريخ فقد صيغ منهجه في قالب غربي فهو مقسم أقساماً ثلاثة كبرى:

١-التاريخ القديم: ويشمل الحضارات الجاهلية التي لا توصف بذلك إطلاقاً.

٢-تاريخ العصور الوسطى: ويشمل فترة ما قبل ظهور الإسلام بقليل ثم يندرج فيه تبعاً للمنهج الغربي التاريخ الإسلامي كله تقريباً.

٣-التاريخ الحديث: ويبتدئ غالباً من قدوم حملة نابليون لاحتلال مصر التي تسمى فجر النهضة الحديثة وينتهي بالتاريخ المعاصر ولا يخفى ما في هذه القسمة من إيحاءات ودلالات هذا في المنهج أما المضمون فقد حشيت مقررات التاريخ بدسائس المستشرقين وسموم المبشرين، وكتبت بأساليب شديدة التأثر بالأساليب الغربية التي تفسر التاريخ مادياً، أو على ضوء رؤى فلسفية خاصة، مع إسقاط أو التقليل من قيمة عامل الإيمان الذي هو أساس العوامل في التاريخ الإسلامي.

فنحن نقرأ في هذه المقررات مثلاً: أن غزوة بدر كان هدفها تعويض ممتلكات المسلمين بمكة، وان فتح مصر خاصة كان سببه ما عرفه عمرو بن العاص عنها في الجاهلية من خصوبة الأرض ووفرة خيرات وان فتح الأندلس هدفه مد الإمبراطورية الإسلامية إلى أوروبا وأن العالم العربي خضع للاحتلال التركي عدة قرون وأن حركة الشيخ محمد عبد الوهاب أول ثورة عربية ضد الاحتلال التركي.. الخ.

٦-استيراد المذاهب اللا دينية في الفكر والأدب :كانت فلسفة كومت الوضعية في فرنسا ونظرية داروين في إنجلترا من أعظم النظريات التي تأثر بها الفكر الغربي وقد عاصرت اليقظة المنبهرة في العالم الإسلامي هاتين النظريتين وهما في أوج عظمتهما فتأثرت بهما أبلغ التأثر، ومن ثم سارت النهضة الفكرية والأدبية الحديثة مساراً غربياً حتى آل الأمر إلى الواقع الفكري والأدبي المعاصر، على أن الأدب خاصة تأثر - بالرومانسية التي اكتهلت في تلك الفترة، وفي هذا القرن استوردت الواقعية واللامعقول بمدارسه المتعددة أما الفكر فقد تأثر الشيخ محمد عبده بفلسفة كومت العقلية، ونستطيع أن نقول أن اتجاهه الاعتزالي يعزى إليها لا إلى المعتزلة المسلمين، ومعلوم تأثر كل زعماء الفكر في مطلع هذا القرن بالشيخ من قريب أو بعيد وكان من الآثار الخطرة ما حاول الشيخ ومدرسته القيام به من التوفيق بين الإيمان والنزعة العقلية، وبغض النظر عن مدى نتائجها ومقدار توفيقهم فيها نجد أنها بدت أقل خطراً في ذلك الوقت من النزعات المتأثرة بفلسفة التطور لاقتران الأخيرة بالمروق الصريح من الدين والدعوة إلى الإلحاد فقد ظهر من الكتاب من أسهم في نقل نظرية داروين إلى الشرق بالترجمة المباشرة وبالدراسة المستفيضة في الصحف هم: شبلي شميل وسلامة موسى وإسماعيل مظهر، والأولان نصرانيان أشهرا إلحادهما وكفرهما بكل دين أما الأخير فمسلم الأصل إلا أنه كتب ما لا يتردد أحد في نسبة

قائلة إلى الكفر، وكان لكتبهم وأبحاثهم أثر كبير في جيلهم ومن تلاه حتى أنك لن تجد من المعاصرين من كتب في موضوع أصل الإنسان إلا هو سائر على الطريق نفسه ولما كان انتشار الإلحاد في العصر الحديث أو على الأقل الشك وإنكار المعرفة يشكل ظاهرة بين المفكرين والمثقفين فلنكتف به مثالاً على استيراد المذاهب الفكرية الحديثة.

اكتفت الأديان بالقول بأن الغاية من خلق الإنسان والجن هي أن يعبدوا الله، فكرة حسنة ولكنها غير صحيحة إذ لو صح هذا إذن لاعتقد بجانبه بأن الله في حاجة لان يعبده الأنس والجن ولظهر النظام الكوني في مجموعة بمظهر شيء ما خلق إلا ليعضد الحياة الإنسانية التي يجب أن تسخر لعبادة الله، وهذا أبعد الأشياء عن أن يكون الغاية من وجود الإنسان والحق أن إسماعيل مظهر لم يكن إلا نموذجاً لكتاب كثيرين يتفاوتون في درجة التصريح بما يعتقدون لكنهم متساوون في المنطق والغاية مثل منصور فهمي ولطفي السيد وأمين الخولي وطه حسين وأخيراً صادق العظم (صاحب كتاب نقد الفكر الديني) وآخرين ممن لا تأويل لما يكتبون إلا الخروج على الإسلام غير أن بعضهم تخفى تحت أقنعة البحث العلمي أو التمذهب الأدبي حتى لا يصدم مشاعر الجماهير فتنصرف عن إنتاجه وكما ظهر في الكتاب فقد ظهر في الشعراء ويبدو أن شعراء مصر أقل من شعراء العراق كالرصافي والزهاوي في ذلك، فالزهاوي مثلاً (١٩٣٦) يمتلئ ديوانه بأفكار إلحادية لا تخرج في جملتها

عن نظرية داروين أو نظرية هيكل الأثير التي هي في الواقع امتداد للداروينية، وقد كان من نتيجة شيوع هذه الأفكار في الفكر والشعر والصحافة التمهيد لانتشار الأفكار المادية لاسيما الشيوعية، وتغذيتها بروح العالم الإسلامي فريسة الشكوك القاتلة ووساوس الشيطان، وانتظم كثير منهم في صفوف المنظمات اليسارية وغيرها من الأحزاب اللادينية، لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية حيث أصبحت الاشتراكية موضة العصر كما يقولون ومثل المذاهب الفكرية كانت المذاهب الأدبية فالرومانسية وجدت صدى لها في الشرق كما في روايات جورجي زيدان التي شوه بها التاريخ الإسلامي ليحاكي الرومانسيين الإنجليز، أما المازني فلم تكن رومانسيته واضحة فحسب بل أنه ليكتب في أحد كتبه تحت عنوان الفصل عبارة منقولة عن الكتاب المحرف المسمى المقدس تقليداً أعمى للكتاب الغربيين في القرن الماضي إذ كان من عادتهم أن توضع على رأس كل فصل عبارة شهيرة على أن فريقاً من الأدباء اتجه بادئ الأمر إلى الترجمة، فتمت ترجمة أعمال معظم أدباء أوروبا المشهورين من شكسبير إلى تولستوي،ومع أن بعضها روائع إنسانية فقد كان الاتجاه الإباحى هو الطاغي على الترجمات كما في أعمال الكسندر دوماس وأميل زولا وأناتول فرانس وظل الاتجاه الإباحى هو المسيطر تقريباً على حركة الترجمة الأدبية تحت ستار الواقعية حتى الحرب العالمية الثانية، ثم ظهرت أصداء اللامعقول اثر نضجها في

الغرب حينئذ، كما ظهرت الكتابة الأسطورية التي أتخذها سارتر وكامو أسلوباً للتعبير عن فلسفة الضياع والعبث، إلا أنهما استخدما أساطير اليونان أما العرب أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم فقد استخدموا التاريخ الإسلامي والقصص القرآني كما في على هامش السيرة والفتنة الكبرى وأصحاب الكهفالخ وقد أسهمت وسائل الإعلام التي يدير معظمها أناس علمانيون من صحافة وإذاعة ومسرح إسهاماً قوياً في تنمية الاتجاه الإباحي وتعميمه، وبالتالي في هبوط الأدب أسلوباً ومضموناً كما في كتابات إحسان عبد القدوس وشيعته نثراً ومع أن الأدب الحديث في غالبه علماني موضوعياً فقد ظهرت له دعوات علمانية ذاتية، تطالب بفصله عن الدين بل وعن الأخلاق تحت شعارات الفن للفن والأدب غير الملتزم والأدب للشعب والأدب للواقع وممن طالب بفصل الأدب عن القيم الدينية سلامة موسى فمن كلامه قوله عن رسالة الأدب إن رسالته العصرية دينية ولكنها مع ذلك بشرية، وهذه الجملة الأخيرة تحتاج إلى تفسير، ذلك أن الأديان القديمة كانت تحملنا تبعات وتطالبنا بواجبات ولكن القيم الأخلاقية والاجتماعية في هذه الأديان كانت قيم الآخرة ولم تكن قيم الدنيا، فكان علينا أن نكون صالحين نمارس الفضيلة ونصلي ونصوم حتى نستمتع بالفردوس ولانتعرض للعقوبة بعد الموت فالقيم هنا أخروية، ولكن الأدب الفرنسي العصري بل الأوروبي كله يحملنا أيضاً تبعات ويطالبنا بواجبات ولكن القيم الأخلاقية والاجتماعية فيه هي قيم

الدنيا فقط، فيجب أن نكون صالحين لأن نمارس الفضيلة كي نخدم المجتمع البشري ونرقى بشخصيتنا أخلاقاً ومعارف ونجعل من كوكبنا فردوساً نجد فيه السعادة والخير والشرف وكما برزت الوجودية في إنتاج أنيس منصور والماركسية في كتابات نجيب محفوظ برز الاتجاه الضائع نهج اللامعقول في شعر بدر شاكر السياب كما في أنشودة المطر ومثله الشاعر اللبناني الملقب أدونيس على أن الاتجاه إلى اللامعقول لم يفض إلى الثورة على الأدب الأصيل في مضمونه بل تعداه إلى الشكل والأسلوب مثلما فعل اليوت اليهودي بالشعر الإنجليزي وذلك بظهور ما يسمى الشعر الحر الذي هو في الحقيقة نوع من الهذيان والإسهال العقلي على حد تعبير الشيخ الغزالي في إحدى محاضراته.

وقد بدأه باكثير والسياب بترجمة الشعر الأوروبي إلى عربية منثورة ثم جاء الجيل التالي الذي كان هزيلاً ممسوخاً في كل شيء فانحصر إنتاجه في هذا الهذيان.

ثالثاً - في الاجتماع والأخلاق: كانت الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي قد انحرفت منذ بضعة قرون، لكن صورة الانحراف لم تبلغ أوجها إلا في مطلع العصر الحديث حيث أصبح المجتمع في أخلاقه وتقاليده وعاداته ينطلق من منطلقات غير إسلامية إذ غلبت الأعراف الجاهلية والعواطف المتهورة والعادات المستحدثة على الأخلاق الإسلامية الأصيلة، غير أن الناس بحكم العاطفة الدينية الموروثة وبما

جبلوا عليه من الغيرة على فضائل الخلق كانوا ينسبون كل قيم وموازين وأعراف مجتمعهم للدين، أو على الأقل يلتمسون لها فيه أصولاً، ورسخ الانحراف المتمسح فى الدين حتى أصبح هو الواقع الذي كان لدى الناس استعداداً للوقوف في وجه من يحاول تغييره سواء أكان مجدداً إسلامياً أم مفسداً أجنبياً، وهم يبررون موقفهم بالاستناد إلى الدين وفي القرن الماضي احتك المجتمع الإسلامي المنحرف بالمجتمع الغربي الشارد عن الدين، ومنذ اللحظة الأولى أحس الغرب المغرور بتقدمه المادي بتفوقه الاجتماعي على الشرق الذي لا شك أنه كان فيه من الفضائل ما يفتقده الغرب، لكن نظرة الغالب إلى المغلوب لا تسمح بالرؤية الصحيحة عادة، لا سيما والروح الصليبية من ورائها وفى المقابل أحس المجتمع الشرقي بالانبهار القاتل واستشعر النقص المرير، ولم يتردد الغربيون الكفرة في قول أن سبب تخلف الشرقيين هو الإسلام فقد استمدوا ذلك من الوهم الذي كان يسيطر على أولئك بأنهم مسلمون حقاً وهكذا كان الطريق مفتوحاً لمهاجمة الأخلاق وتدمير مقومات المجتمع من خلال مهاجمة ذلك الواقع المتخلف الذي لا يمثل الإسلام، وكان النموذج الغربي المشاهد الذي فصل الأخلاق عن الدين يزيد الأمر قوة ووضوحاً وإذا علمت قوى الصليب الحاقدة أن البؤرة التي تتجمع فيها أصول أخلاق ومقومات المجتمع وغيره فقد وضعت مخططات ماكرة لسلب هذه الميزة من المسلمين بإفساد المرأة المسلمة وإشاعة الدياثة بينهم ولما كانت الأمة

الإسلامية هي المسئولة عن كل هذا وفي بداية الأمر علينا أن نستحضر في أذهاننا الصورة الساخرة التي وصف بها المؤرخون دياثة الإفرنج الصليبيين لنقاربها بهذه الصورة التي يقدمها لنا الجبرتي ضمن حوادث سنة ١٢١٦ هـ: ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حلوات الوجوه لابسات الفساتين ومناديل الحرير الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح المزركشة المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة فمالت إليهم (أي إلى الفرنسيين) نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن أولاً مع بعض احتشام وخشية عار فلما وقعت الفتنة الأخيرة وحارب الفرنسيون بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم، فزيوهن بزي نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء وتداخل مع أولئك المأسورات وغيرهن من النساء الفواجر، ولما حل بأهل البلاد الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوزة الفرنسيين ومن والاهم وشدة رغبتهم في النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار، واستملن نظراءهن

واختلسن عقولهن لميل النفوس إلى الشهوات خصوصاً عقول القاصرات وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم فيظهر حال العقد الإسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها، وصار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزينات بزيهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية والأحكام العادية والأمر والنهي والمناداة، وتمشي المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القواسة والخدم وبأيديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن وينهين في الأحكام ومنها أنه لما أوفى أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة وصحبتهم آلات الطرب وملاحوا السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المجاديف بسخيف موضوعاتهم وكتائف مطبوعاتهم وخصوصاً إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم فيصرخون ويطلبون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير إذن فقد ظهرت مؤشرات واضحة على أن من المسلمين من هو مهيأ نفسياً لتقبل أسلوب الحياة الاجتماعية اللا ديني الوافد من الغرب وأن منهم من هو على

استعداد لان يدعو أمته لذلك لو حظى بالعناية اللازمة وعاش عيشة أوروبية ومنذ أيام محمد على ابتدأت حركة الابتعاث إلى الدول الأوروبية، وكان من أشهر المبتعثين الأوائل الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي يعد كذلك من رواد الإصلاح هذا الشيخ المبتعث كتب عن مدينة باريس باريز كتاباً يصف فيه لأبناء أمته الحياة الاجتماعية في فرنسا آنذاك، تعرض فيه لوصف النوادي والمراقص هذا الكلام يوحي لقارئه بدلالات نذكر منها اثنتين :

١-إن الأخلاق ليست مرتبطة بالدين، وهي فكرة انقدحت في ذهن الشيخ لكنه لم يستطع أن يعبر عنها بجلاء، فها هو المجتمع يمارس ألوان الدياثة التي لا يرضاها الدين طبعاً ولكنها مع ذلك ليست خارجة عن قوانين الحياء ولا يشم منها رائحة العهر بل هي معدودة في باب الأدب.

وقد نمت هذه الفكرة وترعرعت حتى قيل صراحة: أن الحجاب وسيلة لستر الفواحش وأن التبرج دليل على الشرف والبراءة، ومن ثم فلا علاقة بين الدين والأخلاق.

٢-إن هذا المجتمع الديوث يكرم المرأة ويحترمها، وفي المقابل نرى المجتمع الإسلامي يحافظ على العرض لكنه يحتقر المرأة - حسب الواقع آنذاك - وبذلك نصل إلى المفهوم الذي وجد في أوربا نفسه وهو أن حقوق المرأة مرتبطة بتحررها من الدين فما لم ينبذ الدين فلن تحصل على هذه الحقوق وقريب من قصد رفاعة ما قصده أحمد فارس الشدياق

إذ وصف بأسلوبه المقامي الخاص الحياة الغربية ووضع المرأة فيها في كتابه الساق على الساق على أن الحركة التي تقوم على الوعي لا على السذاجة لم تكن منطلقة من آراء هذين - رفاعة والشدياق - وأمثالها، بل من أفكار شخصية أخرى هي شخصية جمال الدين الأسد أبادي المعروف بالأفغاني كان جمال الدين متأثراً بشعارات الماسونية لاسيما شعار المساواة، واعتقد أن من أعظم علل الشرق أن المرأة فيه ليست متساوية مع الرجل في الحقوق والواجبات، وكان من تلاميذه الذين سرت فيهم هذه الفكرة محمد عبده، وقاسم أمين الذي كان مترجماً لجمعية العروة الوثقى وقد سبق الحديث عن الأول أما الأخير فهو مبتعث إلى فرنسا للدراسة يقول عنه مؤرخ حياته ويعود قاسم إلى قاعة المحاضرات بجامعة مونبليه وهو أشد رغبة في تعريف المزيد عن الحياة في أوروبا، وهناك يجد زميلته سلافا فلا يتردد في سؤالها أن تصحبه إلى المجتمعات الفرنسية وتقبل هي في سرور باد، وصحبته فتاته إلى كثير من الحفلات وتعرف إلى كثير من الأسر فوجد حياة اجتماعية تختلف عن الحياة في مصر، وجد السفور بدل الحجاب والاختلاط بدل العزلة والثقافة بدل الجهالة وعاد قاسم إلى مصر يحمل إلى أمته فكرة خطرة عرضها على أصدقائه فتردد بعضهم وأيده أكثرهم خاصة الزعماء مثل سعد زغلول ومصطفى كامل وأحمد لطفي السيد كذلك على شعراوي زوج هدى شعراوي وغيرهم ممن قال عنهم كرومر أسميهم حباً في الاختصار أتباع

المرحوم المفتي السابق الشيخ محمد عبده وأظهر قاسم فكرته تلك في كتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة وعند صدور الأول شك كثيرون في كونه كاتبه لما حواه الكتاب من عرض ومناقشة الأقوال الفقهية والأدلة الشرعية التي كان مثل قاسم قليل البضاعة منها، لكنهم لم يشكوا في أن الذي دفعه إلى الفكرة أحد رجلين اما كرومر واما محمد عبده يحل لطفي السيد الاشكال في كتابه قصة حياتي إذ يقول :إن قاسم أمين قرأ عليه وعلى الشيخ محمد عبده فصول كتاب تحرير المرأة في جنيف عام ١٨٩٧ قبل أن ينشره على الناس وجاء مثل هذا في كتاب قاسم أمين أيضاً وعلى أية حال فقد ظهر كتابه تحرير المرأة الذي يمكن تلخيص أفكاره في:

١-إن المرأة مساوية للرجل في كل شيء وإن تفوقه البدني سببه استعمال الأعضاء ويتضح من هذا تعريضه بالقرآن الكريم وتأثره بالداروينية.

٢-إن الانتقاب والتبرقع ليسا من الإسلام لا للتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده وهي عادة عرضت على المسلمين من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين منها براءلكن طوعاً لمقتضيات الاجتماع وجرياً على سنة التقدم والترقي.

٣-إن الحجاب ليس عائقاً عن التقدم فحسب بل هو مدعاة للرذيلة وغطاء للفاحشة في حين أن الاختلاط يهذب النفس ويميت دوافع الشهوة وقد حرص قاسم على تبرئه نفسه من تهمة الدعوة إلى تقليد الغرب في مناداته بهذه الفكرة مدعياً أن الدافع الوحيد هو الحرص على الأمة والغيرة على الدين والوطن، فهو يزعم أن أصل فكرته هو الرد على داركور المستشرق الذي هاجم الحجاب، ولست أدري ماذا ترك قاسم لداركور لكن كتابه الثاني المرأة الجديدة يكذب ادعاءاته تلك فهو يقول فيه: هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه وليس له دواء إلا أصولها وفروعها وآثارها، وإذا أتى ذلك الحين ونرجو ألا يكون بعيداً - انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقناً أن من المستحيل أن يتم إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسساً على العلوم العصرية وقد طبق ذلك في بيته فأحضر لابنتيه مربيتين - إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية وظل قاسم حريصاً على دعوته داعياً إلى فكرته إلى آخر نسمة من حياته القصيرة ففي ليلة وفاته بالسكتة القلبية في ٢٣ أبريل ١٩٠٨ كان يقدم طالبات رومانيات في نادي المدارس العليا وكانت الصحافة أعظم المؤيدين للفكرة التي انتشرت في بلاد الشام والمغرب على أثر نجاحها في مصر أما بلاد الشام فمن الواضح أن الدعوة فيها تعرقلت بالنسبة لمصر حتى أن أول كتاب يتحدث عنها لم يصدر إلا سنة ١٩٢٨ أي بعد وفاة قاسم بعشرين سنة، وهو

الكتاب الذي ألفته - أو ألف باسم - نظيرة زين الدين بعنوان السفور والحجاب ولعل مما يثير الانتباه أن الذي قرظه هو على عبد الرازق صاحب الإسلام وأصول الحكم وكان مما قال إني لأحسب مصر قد اجتازت بحمد الله طور البحث النظري في مسألة السفور والحجاب إلى طور العمل والتنفيذ، فلست تجد بين المصريين إلا المخلفين منهم من يتساءل اليوم عن السفور هو من الدين أم لا ومن العقل أم لا ومن ضروريات الحياة الحديثة أم لا بل نجدهم حتى الكثير من الرجعيات المحجبات منهن يؤمنون بان السفور دين وعقل وضرورة لا مناص لحياة المدينة عنها أما السوريون فيلوح أن للسفور والحجاب عندهم تاريخاً غير تاريخه في مصر، فهم لم يتجاوزا بعد طور البحث النظري الذي بدأه بيننا قاسم أمين منذ أكثر من عشرين سنة، ولكنهم على ذلك يسيرون معنا جنباً إلى جنب في الطور الجديد الذي نسير فيه، طور السفور الفعلي الكلي الشامل وأما بلاد المغرب فقد كانت أسبقها إلى السفور والدعوة إليه إذ كتب الطاهر الحداد سنة ١٩٣٠ كتابه امرأتنا في الشريعة والمجتمع وفي الإمكان أخذ نموذج لتأييد فكرته من المحاولة الفنية التي اشترك فيها محمود بيرم شاعراً وعلي الدعاجي راسماً، ذلك أن الشاعر قام يؤرخ للمراحل التي قطعتها المرأة التونسية قبل أن تلقي الحجاب وذلك من خلال ستة عشر بيتاً جسمت معانيها ووضحها على الدعاجي بأربعة رسوم ظهرت فيها المرأة في أوضاع متباينة.

ترسم الأبيات الأولى والصورة امرأة ضرب البرقع سفحاً دون ظهور أي جزء منها، وقد شبه بيرم انسدال ذلك البرقع الأسود على ذلك الوجه الصبوح انسدال الليل على النهار: هذا من الوجهة النظرية أما التطبيق الواقعي للفكرة فقد حمل العبء الأكبر منه الحركة التي أسميت حركة النهضة النسائية وأشهر رائداتها هدى شعراوي وسيزا نبراوي سكرتيرتها، وباحثة البادية ومنيرة ثابت، وقد التف حولهن عصبة ممن خلعن رداء الحياء وسخرن أنفسهن لخدمة الدوائر الصليبية.

اشتد الحماس لهذه الحركة - في فترة عصيبة حرجة - وهذا التوقيت المشبوه يوحي بأن وراء الأكمة ما وراءها - ذلك أنه في سنة ١٩١٩ هبت مصر في وجه الاستعمار ووقف الشعب بشجاعة مع عدد من المخلصين حقيقة يطالب بحقه من الحرية والحياة، وفي تلك الظروف الصاخبة التي تتميز بالغليان والاضطراب وفي غمرة الثورة العارمة نشطت دعوتان مريبتان متآخيتان، إحداهما استغلت ظروف الثورة لسلخ الأمة عن انتمائها وهي الدعوة إلى اللادينية تحت ستار الشعار الذي رفعته الزعامات المصطنعة الدين لله والوطن للجميع والأخرى :دعت إلى نسف الفضائل الإسلامية من خللا دعوتها إلى تحرير المرأة.

في ذلك الجو العاصف انبرت هدى ورفيقاتها للدفاع عن حقوق الوطن وطرد المحتلين ولكن بماذا؟ لقد خرجن في مظاهرة ومزقن الحجاب وأحرقنه في ميدان عام، وكان هذا أعظم إسهام منهن في الثورة، وإذ

حدث أن الجنود البريطانيين - لحاجة في نفس يعقوب - طوقوا الشوارع ساعة المظاهرة واعتدوا على بعض المتظاهرات – فقد بدا ذلك في أعين الشعب محاولة من بريطانيا لمنع المرأة المصرية من التحرر، وبذلك اكتسبت الحركة صفة البطولة الوطنية.

وتظهر الحقيقة أجلى وأوضح إذ علمنا أنه في تلك الفترة نفسها كان أتاتورك يهدم الإسلام تحت زيف البطولة الوطنية أيضاً ولقد اعتبرت هذه البطولة مبرراً كافياً للانقضاض على الأخلاق بل لمهاجمة أحكام الإسلام علانية، إذ ردد دعاة الإباحية قولهم :أليس الجنس اللطيف الذي أدى دوره في الثورة الوطنية بإخلاص جديراً بأن يتساوى في كل شيء مع الجنس الخشن؟ أتريدون أن تقدم المرأة للوطن كل شيء ولا يقدم الوطن لها شيئاً؟ لكن الحق لم يلبث أن انكشف وإذا بالحركة النسائية في حقيقتها حركة عملية مريبة ترتبط خارجياً بالدوائر الاستعمارية وداخلياً بالزعماء المصطنعين أما ارتباطها بالاستعمار - والجمعيات التبشيرية خاصة فيؤيده خطاب هدى شعراوي الذي ألقته في مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي بروما، وهذه مقدمته :إنه ليسرني حقيقة أن أرى نفسي بينكن في هذه الجمعية المحترمة التي أمكن للمرأة المصرية أن تجيء لتناقش في حقوقها لأول مرة في التاريخ، وانه لمما يدعوني إلى الاغتباط والفخر اختيارى لإظهار تلك الرابطة بين بنات النيل وأخواتهن في أوربا وتختتم خطابها قائلة والآن قبل أن أعود أرجو أن تسمحن لي أيتها السيدات على

طلبكن بإلحاح إبداء الرغبة في إشراك المصرية في واجب الاتحاد الجليل ولنا عظيم الرجاء في أن نصل بفضل نصائحكن الغالية التي نعتبرها السبيل الهادي والنسج على منوالكن الذي نجد فيه خير كفيل إلى تحقيق آمالنا ورغائبنا، ونضع تحت تصرفكن أنفسنا في خدمة مبادئكن ونشر آرائكنأما صلتها بالزعماء المصطنعين فيؤكدها بصفة قاطعة سكرتير سعد زغلول –زعيم حزب الوفد – في كتابه عن حياته فقد ذكر أن سعداً هو الزعيم الحقيقي للحركة النسائية مستشهداً بخطابه الذي ألقاه بمناسبة زيارة وفد مختلط من طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية لمصر، ومنه :إنني من أنصار تحرير المرأة ومن المقتنعين به لأنه بغير هذا التحرير لا نستطيع بلوغ غايتنا ويقيني بهذا ليس وليد اليوم بل هو قديم العهد فقد شاركت منذ أمد بعيد صديقي المرحوم قاسم بك أمين في أفكاره التي ضمنها كتابه الذي أهداه لي - يقصد كتاب المرأة الجديدة ويضيف الكاتب أن زوجة سعد كانت مثقفة ثقافة فرنسية وأنه كان يمنحها الحرية الكاملة ويبدو من مسيرة زوجة سعد أنها أول وجه سياسي عربي تقريباً تظهر زوجته معه سافرة في المحافل والصور وتتسمى على الطريقة الغربية صفية زغلول كما أنها أول من اتخذت بدعة لقب أم المصريين ويذكر أن صفية زغلول هي الزعيمة النسائية الحقيقية لكنها آثرت ألا تظهر ذلك وأسندت هي وزوجها الأمر إلى هدى شعراوي التي عينها سعد رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات.على أن سكرتير الزعيم يثبت دون

أن يدري إدانة الزعيم للحركة النسائية وارتباطها بالاستعمار، وذلك في معرض حديثه عن صديقة سعد منيرة ثابت الملقبة الفتاة الثائرة وأول صحفية مصرية فهو يقول كانت وزارة زيور تضطهد صحافة الوفد وتغلق جرائدها واحدة تلو الأخرى ولا تسمح لوفدي بأية رخصة جديدة، وعلى حين فجأة غابت الآنسة منيرة ثابت أياماً عن بيت الأمة ثم عادت تحمل رخصتين لصحيفتين جديدتين باسم الامل ولسبوار أولاهما عربية سياسية أسبوعية والثانية فرنسية سياسية يومية، وقدمتها للرئيس(سعد) لتكون رهن تصرفه أما كيف حصلت على الرخصتين فلا أعرف عنه اليوم شيئاً ثم تطور الأمر إلى تشكيل أحزاب نسائية أهمها الحزب النسائي ١٩٤٥وحزب بنت النيل١٩٤٩، وقد نشرت الصحف المصرية نفسها فضائح عن هذه الأحزاب تثبت أنها كانت تتلقى أموال من السفارات الغربية خاصة الأمريكية والإنجليزية وكان من ثمرة الحركة النسائية ولادة الصحافة النسائية، فقد صدرت مجلة فتاة الشرق قبل الحرب الأولى، وتجدر الإشارة إلي أن كل عدد من أعدادها يحوي نماذج وصوراً لأزياء الشهر التي ظهرت في أوروبا، الأمر الذي مهد لوقوع المرأة المسلمة في شباك مصيدة الأزياء اليهودية كما وقعت المرأة النصرانية في الغرب وأسهمت المجلات غير النسائية بنصيبها في الحركة فكانت الهلال ومثلها المقتطف والعصور تنشر إلى جانب

المناقشات الفكرية للموضوع صور المتبرجات من شرقيات وغربيات وتحيطها بهالة من التعظيم تغري القارئات بمحاكاتهن.

وفي مجال التعليم حرص لطفي السيد وطه حسين وأتباعهما على أن يكون التعليم مختلطاً فيه الذكور والإناث واشتد الصراع في الجامعة من أجل ذلك، وكتب الرافعي شيطان وشيطانه رداً على طه حسين وسهير القلماوي، كما كتب مقالاً يحيي فيه طلبة الجامعة الذين رفضوا الاختلاط ولكن الانتصار كتب لدعاة الاختلاط، فقد كان في صفهم الزعماء السياسيون – ومعظم الصحف، وكل القوى الدخيلة من مبشرين ومستشرقين في الجامعة وغيرها، إذ أن هذه القوى مجتمعة فزعت لظهور الحركة الإسلامية الطلابية وحاربتها أشد الحرب ولم يقنع الكتاب النسائيون بما حققته الدعوة من مكاسب ونجاح ولعل مرد ذلك إلى أن الأسياد ينتظرون المزيد، بل ظلت الحرب النفسية مستمرة فبعضهم يغرق في المبالغة والوهم حتى يجعل وضع المرأة هو المسئول عن مشكلات مصر من أولها إلى آخرها، كما قال سلامة موسى: تعدد مشكلاتنا يوهم اختلافها في الأصل وإنها لا يتصل بعضها ببعض، ولكن المتأمل المفكر يستطيع أن يجد النقطة البؤرية لجميع هذه المشكلات والنقطة البؤرية الوحيدة هنا هي أن نظامنا الإقطاعي في نظرته للعائلة ومركز المرأة والأخلاق الأبوية والنظرة الاجتماعية، كل هذا يعود إلى مشكلة واحدة هي أن آراءنا الإقطاعية القديمة التي ورثنا معظمها عن الدولة الرومانية

الملعونة (لا يريد أن يعترف بالإسلام) لم تعد تصلح للحياة العصرية وان متاعبنا ولأرزائنا وصداماتنا تنبع من هذا الكفاح الذي نكافحه نحو ديمقراطية جديدة نتخلص بها من الحياة الإقطاعية أما إسماعيل مظهر فقد جمع شبهاته القديمة وآراء غيره ونسقها في كتاب أسماه المرأة في عصر الديمقراطية جاء فيه ومضى الكثيرون متعامين عن الحق الواضح الجلي قائلين بأن قضية المرأة قضية محلولة وأن الزمن القديم قد وضع لها القواعد وفصل الفصول وأتم الفروع، مؤتمين في ذلك بنظريات وأقوال أبلاها الزمن وناء عليها الدهر، فأصبحت مهلهلة فضفاضة بادية العوارت، ولكنهم يحاولون ستر عوراتها بالثرثرة الفارغة كقولهم المرأة للبيت وقولهم الرجل قوام على المرأة وقولهم كما قيل من قبل المرأة ليس لها نفس وفيه لقد اتخذ الرجعيون الذين يرهبون التطور فرقا من أوهام سلطت عليهم أو رغبة في بسط سلطانهم على النساء من بضعة نصوص أشير بها إلى حالات قامت في عصور غابرة سبيلاً إلى استعباد النساء استعباداً أبدياً، لقد حضت المرأة في ذلك العصر أن تقر في بيتها وان لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى ثم أخذ يناقش كلا الدليلين :

إن المعنى الذي يستخلصه أصحاب الرجعية من حض المرأة على أن تقر في البيت معنى غامض كل الغموض الذي يكتنفه فإنهم لا يريدون أن يفسروه حتى تتحدد المعاني القائمة في نفوسهم منه أما إذا أرادوا أن تكون المرأة سجينة البيت فكيف يوفقون بين هذا المعنى وبين حاجات

الحياة الضرورية؟ وإذا أرادوا أن يكون تفسيره أن تقر المرأة في البيت إذا لم يكن لها ما يشغلها خارجه، فلذلك هو الواقع في حياتنا الحديثة لكن المصيبة التي أصابنا بها أولئك المستغرقين في النظر في الحياة بمنظار القبلية البدائية، أنهم يعتقدون أن كل تجمل تبدو به المرأة هو تبرج وأنه تبرج الجاهلية الأولى، ذلك في حين أن كلمة التبرج ليس لها حدود التمرينات الرياضية، وفي حين أنه لم يصلنا عنهم وصف شامل لتبرج الجاهلية الأولى فغالب الظن بل الأرجح تغليباً أن المقصود به أن التبرج عادة ألفت في الأزمان الأولى كانت في نشأتها شعيرة من شعائر الوثنية، أى شعيرة دينية، فإن البغاء على ما يعرف الآن من تاريخه وتطوره قد نشأ في أوله نشأة دينية، فكان شعيرة من شعائر التقرب من الآلهة ثم يقول: فلما جاء الإسلام عطف إلى ناحية المرأة فاعتبرها نصف إنسان وأضفى عليها من الكرامة والاحترام ذلك القدر الذي لا يزال حتى الآن موضع انبهار كل المشرعين غير أن خمسة عشر قرناً من الزمان كافية في الواقع لأن تهيئ العقلية الإنسانية إلى خطوات أخرى في التشريع للمرأة ومن هذه الناحية لا أرى ما يمنع مطلقاً من أن ترفع المرأة إلى منزلة المساواة بالرجل في جميع الحقوق المدنية والسياسية في الميراث وفي قبول الشهادة وفي العمل والاستقلال الفكري والاقتصادي، وبالجملة في جميع الأشياء التي تكمل بها إنسانيتها، ذلك بأنها إنسان ثم تلاه خالد محمد وكتابه الديمقراطية أبداً وكان نصيب المرأة من ديمقراطية شيئين :

١-حق المرأة في وقف تعدد الزوجات، وعلى ذمته ينسب إلى محمد عبده أنه قال يجب تحريم التعدد الآن عملاً بحديث لا ضرر ولا ضرار.

٢-تأميم الطلاق على حد تعبيره.

أما حسن مؤنس فيعد الحجاب الإسلامي هو العائق الأكبر في سبيل انتماء مصر للغرب ذلك أنه ربطها بالمجتمعات الشرقية المتخلفة في حين أن المرأة المصرية القديمة كالمرأة الأوروبية الحديثة سواء بسواء وحضارتها واحدة، يقول: وقد انهارت المجتمعات الشرقية كلها بسبب ظلمها للمرأة وحرمانها إياها من مكانها وحقها الطبيعيين، وهذه حقيقة لم يتنبه لها معظم من يدرسون تواريخ هذه الدول الشرقية من المشارقة ولكنها معروفة للدارسين من أهل الغرب لأن مجتمعهم يقوم على المرأة والرجل مجتمعين، ومن ثم فهم يعرفون أهمية المرأة في المجتمع الإنساني، ويشيرون إلى ذلك ويقررون أنه أساس تقدم مجتمعهم على غيره من المجتمعات، وهذه الحقيقة ـ على ما يبدو من بساطتها ـ تفرق بين مجتمع ومجتمع وحضارة، بل هي الحد الفاصل بين الحضارات التي أينعت وعاشت والحضارات التي ذبلت وماتت والحضارة المصرية القديمة من الطراز الذي أعطى المرأة حقها واعترف بها ومنحها حقها كاملاً في البيت وفي ميدان العمل والحياة، بل إن عينيك لا تقع على رسم مصري قديم إلا وجدت المرأة فيه إلى جانب الرجل ورأيتها رافعة الرأس تسير معه وتعمل معه وحضارة مصر مشتركة من هذه الناحية الأساسية

مع حضارتنا الراهنة وأنا أقول حضارتنا لأنك سترى أن ما نسميه اليوم بحضارة الغرب إن هو إلا الحضارة المصرية القديمة متطورة في اتجاه مستقيم.

وهكذا ظل الناعقون يصيحون من كل مكان ويسلكون كل اتجاه –فكرياً أم عملياً – حتى آل الأمر إلى الواقع المؤلم الذي عبر عنه أوفى تعبير جان بول رو بقوله إن التأثير الغربي الذي يظهر في كل المجالات ويقلب رأساً على عقب المجتمع الإسلامي لا يبدو في جلاء أفضل مما يبدو في تحرير المرأة لقد عمت الفوضى الأخلاقية العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه على تفاوت فذ، وتولى الجيل الذي رباه المحتلون تربية جيل جديد أكثر مسخاً وانحلالاً، وحوربت أحكام الله على يد أبطال الاستقلال أكثر مما حوربت بأيدي المحتل، ولنستمع إلى رو وهو يقرر ذلك قائلاً: في تركيا سنة ٩٢٩ صدر قانون مدني على غرار قانون نوشاتيل المدني السويسري فحرم تعدد الزوجات وقضى على الحجاب والحريم والطلاق، وفي برهة وجيزة جعل المرأة التركية شقيقة المرأة السويسرية وصنوها ثم يقول والمرأة التركية عصرية تماماً فهي ترتدي أثواب السهرة العارية الكتفين والظهر كما تحرص على ارتداء المايوه ولكنها تتحاشى التطرف في ذلك،وأما الغزل وأحاديث الغرام فهي أمور لا تتم في العلن وكذلك التقبيل لا يجرى جهراً،وما من أحد يشكو من التفكك الخلقي وفي المغرب تمكن عهد الاستقلاليمن أن يحقق في بضع سنوات ما لم يستطعه

الاحتلال في عشرات السنين وفي الجزائر أوحت الثورة للنساء بالكفاح فخرجت العذارى المحاربات من بيوتهن ونزعن الحجاب لأول مرة منذ أن اعتنقت بلادهن الإسلام وهنا تكون معركة النضال قد فعلت ما عجز السلام عن فعله أى كما فعلت الثورة الشعبية المصرية وفي تونس أعلن بورقيبة عدة قرارات هي بمثابة ثورة على تعدد الزوجات وجعل السن الدنيا لزواج الفتاة الخامسة عشرة ثم تحرير المواطنين والمواطنات الذين تخطوا العشرينات من عمرهم من موافقة الوالدين إذا ما أرادوا عقد الزواج، وفي نفس الوقت أعلن أن الطلاق لا بد من أن يخضع للمحاكم وقد نشرت مجلة العربي في استطلاع لها عن تونس صورة للوحات الدعاية المنصورية في الشوارع ففي كل ميدان لوحتان إحداهما تمثل أسرة ترتدي الزي المحتشم مشطوبة بإشارة (×) والأخرى تمثل أسرة متفرنجة ومكتوب تحتها كوني مثل هؤلاء أما القرارات التي أشار إليها رو فهي تلك القوانين التي تعاقب من يتزوج ثانية بالحلال وتبرىء بل تشجع من يخادن عشراً بالحرام على أن السلاح الفتاك الذي استخدم الفضيلة وتقويض المجتمعات الإسلامية ونقل الأوبئة الاجتماعية الغربية هو وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وسينما وتلفزيون، تلك التي تعرض بصورة فنية وأساليب متطورة كل ضروب الفتنة وصنوف الانحلال، وقد أصبحت بما لديها من قدرة التأثير وسعة القاعدة تشكل جبهة عريضة عاتية تبدو حيالها محاولة نداء الفضيلة عاجزة جداً

إلى جانب ذلك يأتي التعليم المختلط والنوادي المختلطة والشواطئ والبلاجات المختلطة[1]، والأزياء الخليعة المستوردة من بيوت اليهود في الغرب، وموانع الحمل ووسائل الإجهاض إلى جانب ذلك يكون الاختلاط الفاضح في دوائر الحكومة والمؤسسات وفي وسائل المواصلات وفي الشقق والمساكن وفي كل مكان في معظم أقطار العالم الإسلامي ومن هنا فلا عجب أن سمعنا بين الحين والحين عن جرائم اجتماعية تضاهي تلك التي تنتشر في أوروبا وأمريكا من قتل وخطف واغتصاب وتشرد ولا عجب أن تنتشر الأمراض الاجتماعية الفتاكة الناشئة عن فقد كل من الجنسين خصائصه المميزة وليس ما نشاهده من تخنث الرجال وترجل النساء إلا صورة من ذلك ولا عجب أيضاً أن تتقوض البيوت وتنهار الأسر ويصبح جنوح الأحداث مشكلة اجتماعية تعاني منها بلاد تدعي أنها إسلامية والعجيب حقاً أنه مع هذه النذر كلها لا تزال الدعوات المحمومة على أشدها ولا تزال الموجه في عنفوانها ولا تزال الصيحات تتعالى من كل مطالبة بنبذ التقاليد وفصل الأخلاق عن الدين. (٢)

بعض ملامح العلمانية الوافدة: لقد أصبح حَمَلة العلمانية الوافدة في بلاد الشرق بعد مائة عام من وفودهم تياراً واسعاً غالباً على نخبة الأمة وخاصتها في الميادين المختلفة،فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية

---

١ - سقوط القاهرة – عبد المنعم شميس

٢ - العلمانية – نشاتها تطورها واثرها فى الحياة الاسلامية ص ٣٥٠ وما بعدها.

،وكان يتقاسم هذا التيار الواسع اتجاهان:

أ- الاتجاه اليساري الراديكالي الثوري، ويمثله أحزاب وحركات وثورات ابتليت بها المنطقة ردحاً من الزمن، فشتتت شمل الأمة ومزقت صفوفها، وجرت عليها الهزائم والدمار والفقر وكل بلاء، وكانت وجهتهم الاتحاد السوفييتي قبل سقوطه، سواء كانوا شيوعيين، أو قوميين عنصريين.

ب- الاتجاه الليبرالي ذي الوجهة الأمريكية ومن دار في فلكها من دول الغرب، وهؤلاء يمثلهم أحزاب وشخصيات قد جنوا على الأمة بالإباحية والتحلل والتفسخ والسقوط الأخلاقي والعداء لدين الأمة وتاريخها.

وللاتجاهين ملامح متميزة أهمها مواجهة التراث الإسلامي، إما برفضه كليةً واعتباره من مخلفات عصور الظلام والانحطاط والتخلف كما عند غلاة العلمانية أو بإعادة قراءته قراءة عصرية كما يزعمون لتوظيفه توظيفاً علمانياً من خلال تأويله على خلاف ما يقتضيه سياقه التاريخي من قواعد شرعية، ولغة عربية، وأعراف اجتماعية ولم ينجو من غاراتهم تلك حتى القرآن والسنة، إمّا بدعوى بشرية الوحي، أو بدعوى أنه نزل لجيل خاص أو لأمة خاصة، أو بدعوى أنها مبادئ أخلاقية عامة، أو مواعظ ورقائق روحية لا شأن لها بتنظيم الحياة، ولا ببيان العلم وحقائقه، ولعل من الأمثلة الصارخة للرافضين للتراث، والمتجاوزين له أدونيس ومحمود درويش والبياتي وجابر عصفور ومن لفّ لفهم وشايعهم وهم كثيرون أما الذين يسعون لإعادة قراءته وتأويله

وتوظيفه فمن أشهرهم حسن حنفي ومحمد أركون ومحمد عابد الجابري وحسين أمين ومن على شاكلتهم، ولم ينجُ من أذاهم شيء من هذا التراث في جميع جوانبه.

- اتهام التاريخ الإسلامي بأنه تاريخ دموي عنصري غير حضاري، وتفسيره تفسيراً مادياً، بإسقاط نظريات تفسير التاريخ الغربية العلمانية على أحداثه، وقراءته قراءة انتقائية غير نزيهة ولا موضوعية، لتدعيم الرؤى والأفكار السوداء المسبقة حيال هذا التاريخ، وتجاهل ما فيه من صفحات مضيئة مشرقة،والخلط المتعمد بين الممارسة البشرية والنهج الإسلامي الرباني، ومحاولة إبراز الحركات الباطنية والأحداث الشاذة النشاز وتضخيمها،والإشادة بها، والثناء عليها، على اعتبار أنها حركات التحرر والتقدم والمساواة والثورة على الظلم مثل ثورة الزنج والقرامطة ومثل ذلك الحركات الفكرية الشاذة عن الإسلام الحق، وتكريس فكرة مفادها أنها من الإسلام بل هي الإسلام مثل القول بوحدة الوجود، والاعتزال وما شابه ذلك من أمور تؤدى في نهاية الأمر إلى تشويه الصور المضيئة للتاريخ الإسلامي لدى ناشئة الأمة، وأجياله المتعاقبة.

- السعي الدؤوب لإزالة أو زعزعة مصادر المعرفة والعلم الراسخة في وجدان المسلم، والمسيرة المؤطرة للفكر والفهم الإسلامي في تاريخه كله، من خلال استبعاد الوحي كمصدر للمعرفة والعلم، أو تهميشه على الأقل وجعله تابعاً لغيره من المصادر كالعقل والحس، وما هذا إلا أثر من

آثار الإنكار العلماني للغيب،والسخرية من الإيمان بالغيب،واعتبارها جزء من الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية،والترويج لما يسمي بالعقلانية والواقعية والإنسانية، وجعله البديل الموازي للإيمان في مفهومه الشرعي الأصيل، وكسر الحواجز النفسية بين الإيمان و الكفر، ليعيش الجميع تحت مظلة العلمانية في عصر العولمة وفي كتابات محمد عابد الجابري وحسن حنفي وحسين مروة والعروي وأمثالهم أدلة على هذا الأمر.

- خلخلة القيم الخلقية الراسخة في المجتمع الإسلامي، والمسيرة للعلاقات الاجتماعية القائمة على معاني الأخوة والإيثار والطهر والعفاف وحفظ العهود وطلب الأجر وأحاسيس الجسد الواحد، واستبدال ذلك بقيم الصراع والاستغلال والنفع وأحاسيس قانون الغاب والافتراس والتحلل والإباحية،من خلال الدراسات الاجتماعية والنفسية،والأعمال الأدبية والسينمائية والتلفزيونية،مما هز المجتمع الشرقي من أساسه، ونشر فيه الجرائم والصراع بما لم يعهده أو يعرفه في تاريخه، ولعل رواية وليمة عشاء لأعشاب البحر السيئة الذكر من أحدث الأمثلة على ذلك، وقائمة طويلة من إنتاج محمد شكري والطاهر بن جلون والطاهر طار وتركي الحمد وغيرهم الكثير تتزاحم لتؤدي دورها في هدم الأساس الخلقي الذي قام عليه المجتمع، واستبداله بأسس أخرى.

٥- رفع مصطلح الحداثة كلافتة فلسفية اصطلاحية بديلة لشعار التوحيد، والحداثة كمصطلح فكري ذي دلالات محددة تقوم على مادية الحياة، وهدم القيم والثوابت، ونشر الانحلال والإباحية، وادعاء جزء انسى فى ذات الله وتلويث المقدسات، وجعل ذلك إطاراً فكرياً للأعمال الأدبية، والدراسات الاجتماعية، مما أوقع الأمة في أسوأ صور التخريب الفكري الثقافي.

- استبعاد مقولة الغزو الفكري من ميادين الفكر والثقافة،واستبدالها بمقولة حوار الثقافات،مع أن الواقع يؤكد أن الغزو الفكري حقيقة تاريخية قائمة لا يمكن إنكارها كإحدى مظاهر سنة التدافع التي فطر الله عليها الحياة، وأن ذلك لا يمنع الحوار، لكنها سياسة التخدير والخداع والتضليل التي يتبعها التيار العلماني، ليسهل تحت ستارها ترويج مبادئ الفكر العلماني،بعد أن تفقد الأمة مناعتها وينام حراس ثغورها، وتتسلل في أجزائها جراثيم وفيروسات الغزو العلماني القاتل.

- وصم الإسلام بالأصولية والتطرف وممارسة الإرهاب الفكري، عبر غوغائية إعلامية غير شريفة ولا أخلاقية، لتخويف الناس من الالتزام بالإسلام،والاستماع لدعاته،وعلى الرغم من وقوع الأخطاء وأحياناً الفظيعة من بعض المنتمين إلى الإسلام،إلا أنها نقطة في بحر التطرف والإرهاب العلماني الذي يمارس على شعوب بأكملها، وعبر عقود من

السنين،لكنه عدم الصدق والكيل بمكيالين، والتعامي عن الأصولية والنصرانية واليهودية الموغلة في الظلام والعنصرية والتخلف.

- تمييع قضية الحل والحرمة في المعاملات والأخلاق، والفكر والسياسة، وإحلال مفهوم اللذة والمنفعة والربح المادي محلها، واستخدام هذه المفاهيم في تحليل المواقف والأحداث، أي فك الارتباط بين الدنيا والآخرة في وجدان وفكر الإنسان، ومن هنا ترى التخبط الواضح في كثير من جوانب الحياة الذي يعجب له من نور الله قلبه بالإيمان، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

- دق طبول العولمة واعتبارها قدر محتوم لا مفر منه ولا خلاص إلا به، دون التمييز بين المقبول والمرفوض وفق المعايير الشرعية، بل إنهم ليصرخون بأن أي شئ في حياتنا يجب أن يكون محل التساؤل دون التفريق بين الثوابت والمتغيرات مما يؤدي إلى تحويل بلاد الشرق إلى سوق استهلاكية لمنتجات الحضارة الغربية، والتوسل لذلك بذرائع نفعية محضة لا يسيرها غير أهواء الدنيا وشهواتها.

- الاستهزاء والسخرية والتشكيك في وجه أي محاولة لصبغ بعض جوانب الحياة المختلفة المعاصرة في الاقتصاد والإعلام والقوانين بالصبغة الاسلامية،ولعل الهجوم المستمر على المملكة العربية السعودية بسبب احتكامها للشريعة في الحدود والجنايات من هذا المنطلق، وإن برّروا هجومهم وحقدهم تحت دعاوى حقوق الإنسان وحرياته، ونسوا أو

تناسوا الشعوب التي تسحق وتدمر وتقتل وتغصب بعشرات الآلاف، دون أن نسمع صوتاً واحداً من هذه الأصوات النشاز يبكي لها ويدافع عنها، لا لشيء إلا أن الجهات التي تقوم بانتهاك تلك الحقوق، وتدمير تلك الشعوب أنظمة علمانية تدور في فلك المصالح الغربية.

- الترويج للمظاهر الاجتماعية الغربية، خاصة في الفن والرياضة وشركات الطيران والأزياء والعطور والحفلات الرسمية وقضية المرأة، وكانت هذه شكليات ومظاهر لكنها تعبر عن قيم خلقية،ومنطلقات عقائدية، وفلسفة خاصة للحياة، من هنا كان الاهتمام العلماني المبالغ فيه بموضة المرأة، والسعي لنزع حجابها،وإخراجها للحياة العامة، وتعطيل دورها الذي لا يمكن أن يقوم به غيرها في تربية الأسرة ورعاية الأطفال، وهكذا العلمانيون يفلسفون الحياة ويعطل مئات الآلاف من الرجال عن العمل لتعمل المرأة، ويستقدم مئات الآلاف من العاملات في المنازل لتسد مكان المرأة في رعاية الأطفال، والقيام بشؤون المنزل، ولئن كانت بعض الأعمال النسائية يجب أن تناط بالمرأة، فما المبرر لمزاحمتها للرجل في كل موقع؟!

- الاهتمام الشديد والترويج الدائم للنظريات العلمانية الغربية في الاجتماع والأدب، وتقديم أصحابها في وسائل الإعلام، بل وفي الكليات والجامعات على أنهم رواد العلم، وأساطين الفكر وعظماء الأدب، وما أسماء دارون وفرويد ودوركايم ولا الإنسانية والبنيوية والسريالية وغير

هذا الكثير مما لا يجهله المهتم بهذا الشأن،وبعض هذا قد يتجاوزه العلمانيون في الغرب، لكن صداه ما زال يتردد في عالم الأتباع في الشرق (١) وكأننا نحتاج لعقود من الزمن ليفقه أبناؤنا عن أساتذتهم هذه المراجعات.

العلمانية هي العلمانية في كل بقاع العالم، ودعوتها هي دعوتها، لا فرق سوى أن العلمانية في العالم الإسلامي تراها تدعو للتقدم في العري الفاضح، والفساد الصارخ، ولم تصنع كبقية العالم ما يحمي الأمة من أعدائها من آلات حربية، وهذا يدل على عمالتها المفضوحة(٢)

<u>التوحيد والعلمانية:</u> ومن أجل حسم الصراع بين أهل السنة والجماعة من جانب والعلمانية من جانب آخر، ونظراً لما أصاب الكثير من التصورات الإسلامية من انحراف في أذهان الناس في هذا العصر، ولما يثيره أعداء الإسلام الظاهرون منهم والمتسترون من شبهات وأباطيل فإنه من الواجب علينا أن نقوم بتجلية تلك التصورات وكشف هذه الشبهات في كلمة موجزة عن حقيقة العلمانية الكافرة، وبيان أن التوحيد الذي هو أعظم حقيقة في التصور الإسلامي بل الوجود كله هو في الوقت

---

١) الفرق بين العلمانية العالمية والعلمانية في العالم الإسلامي د/ عوض محمد القرني

٢) العلمانية كارثة الأمة ص ١٦

ذاته أكبر نقيض للعلمانية ومن هنا كان لابد من معرفته حق المعرفة والتأكيد عليه في جميع مراحل الدعوة إلى الله مع بيان سبيل إحياء الأمة في التمسك واتباع مناهج وأصول أهل السنة والجماعة وإذا كان معنى لا إله إلا الله الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإننا نستطيع القول بأن الشرك الذي ظل عبر التاريخ محور الصراع بين الأمم والرسل هو عبادة الطاغوت مع الله أو من دونه في أمرين متلازمين الأول: الإرادة والقصد والثاني: الطاعة والإتباع أما شرك الإرادة والقصد فهو التوجه إلى غير الله تعالى بشعيرة من شعائر التعبد كالصلاة والقرابين والنذور والدعاء والاستغاثة تبعاً للتبريرات الجاهلية المردودة القائلة:{ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} أما شرك الطاعة والإتباع فهو التمرد على شرع الله تعالى وعدم قبول حكمه وتحكيمه في شئون الحياة بعضها أو كلها وهو مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية وبين الإيمان والكفر.

كما أنه السمة المشتركة بين الجاهليات كلها على مدار التاريخ، وبه استحقت أن تسمى جاهلية مهما بلغ شأنها في الحضارة والمعرفة {أفحكم الجاهلية يبغون}وطاغوت هذا النوع قد يكون زعيماً أو حاكماً أو كاهناً أو يكون هيئة تشريعية أو أنظمة وأوضاع وتقاليد وأعراف وعادات أو مجالس نيابية وبرلمانات أو لجان أو مجالس شعبية أو قوانين ودساتير وأهواء وأحزاب... الخ.

والواقع أن كلا النوعين من الشرك مردهما إلى أصل واحد،وهم تحكيم غير الله والتلقي عن غيره فإن مقتضى تحكيمه وحده ألا تتوجه البشرية إلى غيره بأي نوع من أنواع العبادات والقرابين وألا تتوجه وتسير في حياتها كلها إلا وفق ما شرع الله لها في كتبه وعلى لسان رسله {إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه} إن رد الأمر كله إلى الله واتخاذه وحده حكماً في كل شيء هو بعينه العبادة التي أمر الله ألا يصرف شيء منها لغيره،وهذا هو الدين القيم الذي لا يرضى الله تعالى سواه وإن جهله أكثر الناس على مدار التاريخ.

عوامل انتقالها إلى العالم الإسلامي: بدأت فكرة العلمانية تغزو العالم الإسلامي منذ زمن طويل لكنها لم تتمكن إلا في بداية القرن العشرين الميلادي، حين طبقت على مستوى الدولة على أنقاض الخلافة العثمانية ثم سرت إلى أكثر بلدان العالم الإسلامي وكانت هناك عدة عوامل رئيسية ساعدت على انتقال العلمانية إلى العالم الإسلامي أهمها:

أولاً: انحراف كثير من المسلمين عن العقيدة الصحيحة بسبب انحراف كثير من المسلمين عن العقيدة الصحيحة المستمدة من الكتاب والسنة، كثرت البدع والخرافات والشعوذة والأهواء وقلَّ الفقه في الدين بينهم ومن انحراف بعض المسلمين عن عقيدتهم ظهور الفرق الصوفية بينهم، وكان من الأخطاء الأساسية في الفكر الصوفي النظرة العدائية إلى الحياة الدنيا تلك التي يبدو أنها متأثرة بالفكر البوذي والفلسفات المنحرفة

وحدث أن أقبل العامة بقيادة المتصوفين على الطقوس والأوراد وهذا الخلط الصوفي الأحمق يعتبر أول تصدع أصاب كيان الأمة الإسلامية، وهذا الانحراف العقدي وقع قبل احتكاك الغرب اللا ديني بالشرق، بل قبل قيام الدولة العثمانية، وفي آخر عهد العثمانيين ازداد الأمر سوءاً وتوهم الناس أن العبادة هي ما يأمر به المشايخ والأولياء من البدع، ووقعت الأمة في شرك حقيقي، وذلك بما يمارسه الناس من بدع الأضرحة والمشاهد والمزارات، وتقديس الموتى والاعتماد عليهم في جلب النفع ودفع الضرر، ووصل الأمر إلى حالة مزرية جداً حين كانت جيوش المستعمرين تقتحم المدن الإسلامية، والمسلمون يستصرخون الأسياد أو الأولياء الذين قد مضى على وفاتهم مئات السنين لذلك يقول ابن تيمية عنهم أما الجهاد فالغالب عليهم أنهم أبعد من غيرهم، حتى نجد في عوام المؤمنين من الحب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبة والتعظيم لأمر الله،والغضب والغيرة لمحارم الله، مالا يوجد فيهم، حتى إنَّ كثيراً منهم يعدون ذلك أي الجهاد نقصاً في طريق الله وعيباً بل ربما يظنون أن الذكر والتفكر والفناء والبقاء هو الأصل والأهم.

ثانياً: استعمار العالم الإسلامي :لقد تعرض العالم الإسلامي لهجمات قوية من قبل أعدائه عبر التاريخ، ولكن لما كان المسلمون متمسكين بدينهم وأكثر استعداداً للجهاد في سبيل الله، استطاعوا أن يردوا حملات أعدائهم، لكن لما ضعف المسلمون وكثرت فيهم البدع والخرافات

واجتالتهم الطرق الصوفية، ولجأ بعضهم إلى التعلق بالقبور والتمسح بها والذبح لها ودعاء الموتى، واستسلم بعضهم إلى ملذات الدنيا، والبعض الآخر بدأ يتشبث بالأفكار الوافدة، وقعدوا عن الجهاد، بعد ذلك انقض عليهم الأعداء من كل جانب ولم تنته الحربان العالميتان إلا وكثير من البلدان الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار ولم يكن مخطط الاستعمار أن يستغل خيرات تلك البلاد ويستعبد سكانها فحسب بل كان أهم مخططاته محاربة الإسلام، وتجهيل المسلمين بحقيقة دينهم بجميع الوسائل الممكنة له الظاهرة والخفية ومن أهم الوسائل التي استعملها الاستعمار في محاربة المسلمين:

- نشر الثقافة الغربية على نطاق واسع، مع السعي للتخفيف من الثقافة العربية الإسلامية أو القضاء عليها إن أمكن ذلك ولو مع طول الزمن.

-تشجيع مدارس التبشير المسيحي، وتدوين مناهجها لكي ينصرف أبناء المسلمين إليها تاركين مدارسهم الإسلامية، وقد نجح في ذلك كله.

- تشجيع الطوائف المنحرفة التي تعمل باسم الإسلام في ميدان الدعوة كالقاديانية، وبعض الطوائف الصوفية؛ ليتمكن من ضرب الإسلام ودعوته من الداخل بأيد تنتمي إليه، تلهج بذكره، وهذا أخطر سلاح استعمله الاستعمار ضد الإسلام ودعوته.

ه- اعتبار اللغة الإنجليزية لغة رسمية في كثير من البلدان العربية والإسلامية، مما جعل شباب المسلمين يقبلون على هذه اللغة في الوقت

الذي يجهلون فيه لغتهم الأصلية، بل استطاع الاستعمار أن يحمل الشباب السذج على كراهية الإسلام وأهله بدعوة أنه دين تعصب، ودين تأخر، وانطلى هذا الكلام على شباب المسلمين؛ لجهلهم حقيقته فضلوا وبسبب الاستعمار والتبشير انتشرت المعتقدات العلمانية في العالم الإسلامي وقد حرص الغرب منذ وطئت أقدامه أراضي المسلمين على نشر العلمانية بأكثر من سبيل وكان أهم مجالات نشرها ووسائلها فيما يلي:

١ -في التعليم وله في ذلك أكثر من سبيل أهمها:

-حصر التعليم الديني وحصاره مادياً ومعنوياً الابتعاث إلى الدول غير الإسلامية وحقق ذلك الابتعاث نتائجه المقصودة- نشر المدارس الأجنبية في البلاد الإسلامية- تمييع المناهج الإسلامية باسم التطور- نشر الاختلاط بين الجنسين في مراحل التعليم وقد بدأوا بها في الجامعات

٢ - في الإعلام وهو يخاطب الملايين من الناس ببرامجه، وأكثر هذه الملايين ساذجة تؤثر فيها الكلمة مقروءة أو مسموعة أو منظورة.

-إبعاد الإسلام عن مجال التطبيق ومما يدل على دور الاستعمار في نقل العلمانية إلى البلدان الإسلامية أن أول عمل قام به الإنجليز في الهند هو إلغاء الشريعة الإسلامية، وأول عمل قام به نابليون في مصر هو تعطيل الشريعة الإسلامية، وإحلال القانون الفرنسي محلها، وأول عمل قام به المخطط اليهودي الصليبي في تركيا هو إلغاء الشريعة الإسلامية ثم إعلان تركيا دولة لا دينية وأخيراً غادر المستعمرون ديار المسلمين بعد

أن خلفوا على تركتهم ورثة مخلصين؛ ليحافظوا عليها، ولأنهم يتمكنون من العمل لصالحهم أكثر مما يتمكنون هم بأنفسهم.

ثالثاً: الغزو الفكري:بمحاولة إبعاد المسلمين عن دينهم بوسائل مختلفة، وتحت أسماء خادعة رقيقة مثل التغريب، التحديث أو الحداثة، التحضر، التغيير الاجتماعي، وعملت العلمانية في مجالاتها، وشقت طريقها في مجاريها قال الشيخ عبد العزيز بن باز الغزو الفكري مصطلح حديث يعني مجموعة الجهود التي تقوم بها أمة من الأمم للاستيلاء على أمة أخرى أو التأثير عليها حتى تتجه وجهة معينة وهو أخطر من الغزو العسكري؛ لأن الغزو الفكري ينحو إلى السرية، وسلوك المآرب الخفية في بادئ الأمر، فلا تحس به الأمة المغزوة، ولا تستعد لصده والوقوف في وجهه حتى تقع فريسة له، وتكون نتيجته أن هذه الأمة تصبح مريضة الفكر والإحساس، تحبُّ ما يريده لها عدوها أن تحبه، وتكره ما يريد منها أن تكرهه وهو داء عضال يفتك بالأمم، ويذهب شخصيتها، ويزيل معاني الأصالة فيها، والأمة التي تبتلى به لا تحس بما أصابها، ولا تدري عنه؛ لذلك يصبح علاجها أمراً صعباً وإفهامها سبيل الرشد شيئاً عسيراً (١)

رابعاً: المستشرقون:لقد سلك المستشرقون طرقاً عديدة في الوصول إلى أغراضهم ومنها:التدريس الجامعي- جمع المخطوطات العربية وفهرستها- التحقيق والنشر والترجمة - التأليف في شتى مجالات

١) مجلة البيان عدد ١٩٥ص ٤١-٤٣).

الدراسات العربية والإسلامية، بالإضافة إلى الاشتراك في بعض المجامع اللغوية، والمجامع العلمية في العالم الإسلامي- والتأليف من أخطر وسائلهم حيث ألفوا كثيراً من الكتب التي تطعن في الإسلام وتتلخص جهود المستشرقين في هذا المجال فيما يلي(الطعن في حقيقة الإسلام والقرآن والنبوة - الزعم بأن الإسلام استنفذ أغراضه، وهو عبارة عن طقوس وشعائر روحية-الزعم بأن الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني-الزعم بأن الإسلام لا يتلاءم مع الحضارة ويدعو إلى التخلف- الدعوة إلى تحرير المرأة وفق الأسلوب الغربي-تشويه الحضارة الإسلامية وتاريخها-تضخيم حجم الحركات الهدامة في التاريخ الإسلامي، والزعم بأنها حركات إصلاح-إحياء الحضارات القديمة-اقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية عن الغرب ومحاكاته فيها.

- تربية الأجيال تربية لا دينية وقد انتشرت هذه المعتقدات مع الأسف في بعض دول العالم الإسلامي .

خامساً: المنصّرون: وقد نقل المنصّرون العلمانية من خلال نشراتهم وكتبهم كما أن للمستشرقين والمنصرين أهدافاً مشتركة ولهم وسائل متداخلة، ويمكن القول بأن ميدان المستشرقين الأساسي هو الثقافة والفكر، بينما يركز المنصرون جهودهم في النواحي الاجتماعية والتربوية والتمثيليات والأفلام، ومن خلال المدارس المختلفة التي بدأت بالأجنبية، ثم كان تأثيرهم على مناهج التعليم الوطنية.

-إنشاء المحاضن والمدارس والجامعات الأجنبية-استخدام القوة أحياناً - المؤتمرات المشتركة- استخدام الرشوة-استخدام المكتبات والصحافة- الاهتمام بالمرأة المسلمة وذلك بمحاولة إبعادها عن عقيدتها وإغرائها بتقليد المرأة الغربية - البعثات الخارجية- استخدام أعمال الخير والخدمات الاجتماعية: كإنشاء ملاجئ للأيتام، ومراكز رعاية اجتماعية للفقراء والمحتاجين- استخدام الطلبة وعامة الناس في التنصير-استخدام الطب كوسيلة للتنصير-استخدام النوادي والجمعيات إلى غير ذلك من الأساليب التي استخدمها المنصرون في الوصول إلى غاياتهم المكشوفة؛ كبناء الكنائس، وتوزيع الأناجيل، وإقامة الندوات، والاهتمام بإفساد الريف الإسلامي - الذي يتميز عادةً بالمحافظة على القيم الإسلامية - والسيطرة على وسائل التربية والإعلام واستخدامها في سمومهم، وتوهين العقيدة الإسلامية في النفوس، مع صرف العناية إلى الأطفال، والنفاذ إلى عقولهم من خلال تلك الوسائل.

سادساً: الأقليات غير المسلمة داخل المجتمعات الإسلامية: كالنصارى، واليهود، والشيوعيين، وأصحاب الاتجاهات المنحرفة من جمعيات وأحزاب ونحوهم، وكل هؤلاء لا ينعمون بضلالتهم وانحرافهم وفسادهم إلا تحت شعار كشعار العلمانية، لذلك تضافرت جهودهم على نشرها وبثها، والدعاية لها حتى انخدع كثيرون من السذج، وأنصاف المتعلمين من أبناء المسلمين.

سابعاً: تقدم الغرب في العلم المادي :إن تقدم الغرب الهائل في مضمار العلم المادي والقوة جعل كثيرين من المسلمين ينبهرون بذلك التقدم، ويعزونه إلى الاتجاه الجاهلي العلماني الحديث، وصدقوا دون تفكير مزاعم الكفار بأن الدين معوق للعلم، وظنوا أن بلادهم لن تتقدم حتى تفصل الدين عن الدولة والحياة، وهذا بلا شك جهل بالإسلام جنى ثماره النكدة أكثر المسلمين (١).

ثامناً: البعثات إلى الخارج:إن الطلاب الذين يذهبون من أبناء المسلمين إلى الدول غير الإسلامية، ولم تكن لديهم الحصانة الكافية من عقيدتهم، إن هؤلاء من أخطر الوسائل؛ لأن كثيراً منهم تعلقوا بقيم الغرب أو الشرق ومثله وعاداته،وقد عاد هؤلاء إلى بلدانهم وهم يحملون ألقاباً علمية وضعتهم في مناصب التوجيه،ونظر الناس إليهم على أنهم قدوة؛ لأنهم وطنيون (٢).

هل للعلمانية في العالم الإسلامي مبرر؟ العلمانية فكرة مستوردة لا يشك في ذلك أعداؤها ولا يماري فيه أحد من دعاتها ومعنى ذلك بداهة أنها ليست من صميم الإسلام ولا هي حتى من إنتاج المنتسبين إليه، لذا وجب أن ننظر إليها نظرتنا إلى أية بضاعة مستوردة من جهة حاجتنا إليها أوعدمها، فما لم نكن بحاجة إليه فإن المفروض فينا باعتبارنا

---

١) مجلة البيان عدد ١٩٥ص ٤٢.
٢) العلمانية نشأتها وتطورها، ص ٥٤٩

عقلاء أن نميز ونختار أخذ الواعي الحذر.

وبتطبيق هذه البديهة على العلمانية نجد أنها بضاعة نحن في غنى تام عنها، فمن الحمق والغباء أن نجلبها حتى وإن كانت نافعة ومجدية بالنسبة للمجتمعات والظروف التي أنتجتها، فكيف إذا كانت ما دخلت مجالاً من مجالات الحياة إلا وثمرتها الشقاء المطبق والضياع المرير؟ ثم انه يجب سلفاً ألا ننسى أننا لسنا مخيرين أصلاً في قبول هذه الفكرة أو رفضها، وإننا إنما نناقشها من قبيل الفرض الجدلي والنزول إلى مستوى الخصم وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين وإلا فإن ما سيأتي تقريره من حكم العلمانية في دين الله لا يدع لنا فرصة للتفكير أو التردد وبالرغم من ذلك نقول هل للعلمانية في العالم الإسلامي مبرر؟ هل لها ما يسوغها من الأسباب سواء أكان في العقيدة أم الشريعة في التصور أم في التطبيق؟ وقبل أن نفكر في الجواب سوف تستولي على أذهاننا تلك المشاهد المروعة التي عرضت سابقاً عن الحياة العلمانية في الغرب ولسان حالها يصرخ في وجوهنا أن احذروا أن تلقوا بأنفسكم في الجحيم والنتيجة واضحة وهي أن العلمانية رد فعل خاطئ لدين محرف وأوضاع خاطئة كذلك، وإنها نبات نكد خرج من تربه خبيثة ونتاج سيئ لظروف غير طبيعية فأوروبا نكبت بالكنيسة وديانتها المحرفة وطغيانها الأعمى وسارت أحقاباً من الدهر تتعثر في ركابها ثم انتفضت عليها وتمردت

على سلطتها، فانتقلت إلى انحراف آخر وسارت في خط مضاد إلا أنه أعظم خطراً وأسوأ مصيراً.

انتقلت من جاهلية تلبس مسوح الدين إلى جاهلية ترتدي مسوح التقدم والتطور، وهربت من طغيان رجال الدين والإقطاعيين فوقعت في قبضة الرأسماليين وأعضاء الحزب الشيوعي وذلك الانتقال وهذا الهروب دفعت إليه ظروف تاريخية نابعة من واقع الحياة الأوروبية خاصة، مع العلم أنه لم يكن ضرورياً أن يتخذ رد الفعل الأوروبي تلك الصفة بعينها وان مجيئه على هذا الشكل ليس حتمياً أي أنه لم يكن حتماً على مجتمع ابتلى بدين محرف أن يخرج عنه ليكون مجتمعاً لا دينياً بل الافتراض الصحيح هو أن يبحث عن الدين الصحيح فإذا وجدنا مجتمعاً آخر يختلف في ظروفه عن ذلك المجتمع ذلك يصر على أن ينتهج اللادينية ويتصور أنها حتم وضرورة فماذا نحكم عليه؟ وكيف يكون الحكم أيضاً إذا كان هذا المجتمع الآخر يملك الدين الصحيح؟ إن أول ما لاحظناه في دين أوروبا هو التحريف في العقيدة والشريعة عقيدة التثليث المضطربة والأناجيل المحرفة ثم النظرة القاصرة التي فصلت الدين عن الدولة والحياة وحصرته في الأديرة والكنائس فهل ذلك أو شيء منه في الإسلام؟

قديما يذكر الإمام البيهقي رحمه الله قصة واقعية مروية عن القاضي يحيي بن أكثم قال دخل رجل يهودي على المأمون فتكلم فأحسن الكلام فدعاه المأمون إلى الإسلام فأبى فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً فتكلم

فأحسن الكلام فقال له المأمون ما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن الأديان فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها البيعة فاشتريت مني وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ فيها نقص وزيادة وأدخلتها الوراقين فتصفحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها فعلمت أن هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامي.

ونتيجة للضبط المتقن والدقة البالغة كانت الأمة واثقة كل الثقة في قدرة علمائها على كشف كل مدسوس على السنة، فقد جيء إلى الرشيد بزنديق فأمر بقتله فقال :يا أمير المؤمنين أين أنت من أربعة آلاف حديث وضعتها فيكم أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام ما قال النبي ص منها حرفاً واحداً؟ فقال الرشيد: أين أنت يا زنديق من عبد الله بن المبارك وأبي إسحاق الفزاري ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً وظلت هذه الأمة الإسلامية قروناً تعيش حياة متسقة موحدة المنهج والسلوك لا أثر فيها لشيء من الانفصال بين الشريعة والسياسة أو بين الدين والدنيا على النحو الذي رأيناه في النصرانية نعم وقع في حياة الأمة الإسلامية انحراف بل انحرافات لكنها انحرافات عملية أملتها الأهواء والأطماع

١- الخصائص الكبرى

٢- تحذير الخواص – السيوطى ١٦٣

وأسهمت في إرسائها عوامل ليس هذا مجالها أما الشريعة ذاتها فقد ظلت سليمة محفوظة وبقيت منهجاً سامياً ثابتاً ترتقي إليه الأمة في فترات اليقظة والإصلاح، ولم يذهب أبداً من حس الأمة بمجموعها أن تقيس الواقع بالشريعة وأن تنظر إلى الانحراف وإن طال على أنه انحراف حتى في أحلك العصور وأحرجها كان ضمير الأمة يقظاً وكان فيها علماء أفذاذ يصححون المفاهيم ويردون المنحرفين إلى الأصل الثابت الوضاء.

يقول الإمام ابن القيم الذي عاش في الفترة المظلمة التي تلت سقوط بغداد واكتساح التتار للرقعة الإسلامية :وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين صحيح وفاسد فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها والباطل ضدها ومنافيها وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها وهو مبني على حرف واحد وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم ولم يحوج أمته إلى أحد بعده إنما حاجتهم إلى من يبلغ عنه ما جاءه فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم وعموم بالنسبة إلى كل من يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوع من أنواع

الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلمهم كل شيء ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجن والنار والجنة ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأى عين وعرفهم معبودهم إلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم وعرفهم طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرف نبي لأمته قبله وعرفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يعرف به نبي غيره وكذلك عرفهم ﷺ من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه.

وكذلك عرفهم ﷺ مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق النصر والظفر ما لو عملوه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً وكذلك عرفهم ﷺ مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيده ومكره وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه وجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ولم يحوجهم إلى أحد سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن

بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده وسبب هذا كله خفاء ما جاء به من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله أصحاب نبيه الذين اكتفوا بما جاء به واستغنوا به عما سواه وفتحوا به القلوب والبلاد وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم أما السلطة الكهنوتية فلا وجود لها في الإسلام لا بالشكل الذي رأيناه سلفاً في أوروبا النصرانية ولا بغيره لأن الإسلام إنما أنزله الله لتحرير العباد وإخراجهم من عبودية العباد إلى عبادة الله وحده وطاعته دون سواه في التلقي وفي الاتباع، في المنهج والسلوك وعلى ذلك جاء الأمر صريحاً قاطعاً فيما يتعلق بصرف أي نوع من أنواع العبادة الكثيرة لغير الله، كائناً من كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو طاغوتاً متألهاً فالأمر كله سواء،كله كفر:(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون)وهذا هو الفرق الجوهري الأول في المسألة بين الإسلام والنصرانية المحرفة فوجود هيئة كنهوتية تشرع لخلق الله أمراً أو نهياً في العقيدة أو الفروع هو شك أكبر ف الله تعالى سواء أجاء ذلك في صورة مراسيم بابوية أم قرارات مجمعية أم منشورات كنسية.

---

١) إعلام الموقعين عن رب العالمين

وقصة عدي بن حاتم توضح ذلك كل الوضوح، لذلك جاءت دعوة النبي ﷺ أهل الكتاب مناسبة لمقتضى الحال التي كانوا عليها من عبادة الأفراد وتقديس المخلوقين فحينما كتب رسول الله ﷺ إلى طواغيت الأرض يبلغهم دعوته كان نص كتاب هرقل زعيم نصارى الروم هكذا: من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون وهذا تعريض جلي بأن النصارى يعبد بعضهم بعضاً وان الله تعالى يدعوهم إلى الإسلام الذي ينفي ذلك أشد النفي.

وعندما اختلف بعض الصحابة رضي الله عنهم مع ابن عباس رضي الله عنهما في مسألة متعة الحج احتجوا عليه بفعل أبي بكر وعمر فقال يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول قال رسول الله ﷺوتقولون قال أبو بكر وعمر هذا مع أن أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أفضل الأمة وأبعدهما عن الأمر بما يخالف الكتاب والسنة.

فأين هذا من قرارات الفاتيكان التي ما تزال تصدر بعد المسيح بألفى سنة تحل وتحرم كما تشاء؟ ولا مجال للمقارنة بين الشرك الذي ترتكب المجامع النصرانية ومجالس الكرادلة وغيرها وبين الاجتهاد الذي يباح

لمن كان أهلا له من علماء المسلمين فالاجتهاد واستنباط ونظر في النصوص الشرعية الموحاة قرآنا أو سنة وليس تشريعاً مستقلاً كما هو الحال في القرارات الكنسية ثم إن الاجتهاد لا يعدو كونه رأياً فردياً لا عصمة فيه من الخطأ ولا يلزم أحد أتباعه بل يحق لأي إنسان أن يخالفه ما دامت المخالفة تتمشى أيضاً مع روح الشريعة ومدلولات النصوص والقاعدة المشهورة كل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ هي عبارة قالها كثير من العلماء واتفق عليها الأئمة الأربعة وغيرهم ولا يخالف فيها إلا من خلع ربقة الإسلام كلية كغلاة الروافض والفرق الجوهري في المسألة هو أنه لا واسطة بين الله وخلقه في الإسلام على الإطلاق اللهم إلا أن الرسل صلوات الله عليهم يبلغون عن الله تعالى، والعلماء يبلغون عنهم وقد يسمون وسطاء بالنظر إلى ذلك أما التوسط بمعناه الذي تولته الكنيسة النصرانية فهو في دين الله شرك أكبر ولا وجود له تاريخياً.

نعم وجد ما يشبه ذلك عند بعض المتصوفة مع مريديهم وبين الجهلة من العوام بالنسبة للأموات والصالحين لكنه مع اختلافه عن التوسط الكنسي ليس من الإسلام ولم يقره علماء الأمة المعتبرون.

قال شيخ الإسلام في رسالة له فريدة: وما سوى الأنبياء من مشايخ العلماء والدين فمن أثبتهم وسائط الرسول ﷺوأمته يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد أصاب في ذلك، وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وإن تنازعوا في شيء

ردوه إلى الله والرسول إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا الرسول ﷺوقد قال ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وغنماً ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر ومن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إليه حوائج الخلق فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً (١).

وقد أدرك اتيين دينيه هذه الحقيقة وكانت إحدى دوافع اعتناقه الإسلام يقول: الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإسلام جميع الأديان إذ ليس بين الله وعبده وسيط وليس في الإسلام قساوسة ولا رهبان، إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديان وانهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم (٢) إن الإسلام ليس فيه شيء اسمه رجال دين أصلاً بل أن هذه الكلمة المحدثة لا يستعملها إلا مغرض مضلل أو ساذج مخدوع فالتصور الإسلامي أساساً يرفض

١) الواسطة بين الحق والخلق ١٦ : ١٧

٢) أشعة خاصة بنور الاسلام ٢٣

فكرة وجود أشخاص أو مجالات دنيوية لا علاقة لها بالدين أو دينية لا علاقة لها بالحياة بل هو يجعل النفس البشرية ومثلها الحياة البشرية وحدة متناسقة ويخاطبها على هذا الأساس ويربطها بالله تعالى مباشرة في توحيد خالص مجرد والله تعالى يقول (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان) فأين هذا من تعاليم النصرانية المحرفة حيث يجلس المذنب على كرسي الاعتراف أمام عبد مخلوق مثله يقر بذنوبه ويلتمس منه المغفرة والرضوان؟ ولقد صان الله الإسلام من تلك الملابسات فالطغيان الديني ذلك الذي يحتكر تعاليم الوحي ويحرف ألفاظها ومعانيها ويسير الجيوش الصليبية لسحق المخالفين من الفرق في الرأي ويقيم محاكم التفتيش لتصديهم لم يوجد له نظير في تاريخنا الإسلامي.

والطغيان السياسي ذلك الذي يستذل الحكام لأشخاص رجال الدين ويعرض الشعوب لطائلة عقوبة الحرمان العام بسبب نزوة غضب تعتري أحد البابوات ويسخر الناس ويكبل ما منح الله للإنسان من حق الحياة الحرة لم يكن في الإسلام مثله أبداً والطغيان الاقتصادي ذلك الذي يتحكم في موارد وأرزاق البشر ويستذلهم بالعمل المجاني في إقطاعيات الكرادلة والقساوسة ويفرض الضرائب الباهظة على الأمم والأفراد لحساب خزانة الفاتيكان لا وجود لمثله في الإسلام مطلقاً والطغيان الفكري والعلمي ذلك الذي وقف عثرة في سبيل رقي البرية وأقام محاكم

التفتيش لحرق العلماء أحياء هذا الطغيان الرهيب لا وجود له في الإسلام ومن الثمار الخبيثة للعلمانية :

١ـ رفض الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، وإقصاء الشريعة عن كافة مجالات الحياة، والاستعاضة عن الوحي الإلهي المُنزَّل على سيد البشر محمد بن عبد الله ﷺ، بالقوانين الوضعية التي اقتبسوها عن الكفار المحاربين لله ورسوله، واعتبار الدعوة إلى العودة إلى الحكم بما أنزل الله وهجر القوانين الوضعية، تخلفًا ورجعية وردة عن التقدم والحضارة، وسبباً في السخرية من أصحاب هذه الدعوة واحتقارهم، وإبعادهم عن تولي الوظائف التي تستلزم الاحتكاك بالشعب والشباب، حتى لا يؤثروا فيهم.

٢ـ تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه، وتصوير العصور الذهبية لحركة الفتوح الإسلامية، على أنها عصور همجية تسودها الفوضى، والمطامع الشخصية.

٣ـ إفساد التعليم وجعله خادمًا لنشر الفكر العلماني وذلك عن طريق:

أ ـ بث الأفكار العلمانية في ثنايا المواد الدراسية بالنسبة للتلاميذ، والطلاب في مختلف مراحل التعليم.

ب ـ تقليص الفترة الزمنية المتاحة لمادة الدين إلى أقصى حد ممكن.

ج - منع تدريس نصوص معينة لأنها واضحة صريحة في كشف باطلهم.

د - تحريف النصوص الشرعية عن طريق تقديم شروح مقتضبة ومبتورة لها، بحيث تبدو وكأنها تؤيد الفكر العلماني، أو على الأقل لا تعارضه.

ه - إبعاد الأساتذة المتمسكين بدينهم عن التدريس، ومنعهم من الاختلاط بالطلاب، عن طريق تحويلهم إلى وظائف إدارية أو إحالتهم إلى المعاش.

و - جعل مادة الدين مادة هامشية، حيث يكون موضعها في آخر اليوم الدراسي، وهي في الوقت نفسه لا تؤثر في تقديرات الطلاب.

٤- إذابة الفوارق بين حملة الرسالة الصحيحة، وهم المسلمون، وبين أهل التحريف والتبديل والإلحاد، وصهر الجميع في إطار واحد، وجعلهم جميعاً بمنزلة واحدة من حيث الظاهر، وإن كان في الحقيقة يتم تفضيل أهل الكفر والإلحاد والفسوق والعصيان على أهل التوحيد والطاعة والإيمان فالمسلم والنصراني واليهودي والشيوعي والمجوسي والبرهمي كل هؤلاء وغيرهم، في ظل هذا الفكر بمنزلة واحدة يتساوون أمام القانون، لا فضل لأحد على الآخر إلا بمقدار الاستجابة لهذا الفكر العلماني.

وفي ظل هذا الفكر يكون زواج النصراني أو اليهودي أو البوذي أو الشيوعي بالمسلمة أمرًا لا غبار عليه، ولا حرج فيه، كذلك لا حرج عندهم أن يكون اليهودي أو النصراني أو غير ذلك من النحل الكافرة حاكمًا على بلاد المسلمين وهم يحاولون ترويج ذلك في بلاد المسلمين تحت ما سموه بالوحدة الوطنية بل جعلوا الوحدة الوطنية هي الأصل، وكل ما خالفها من كتاب الله أو سنة رسوله - ﷺ - طرحوه ورفضوه، وقالوا: (هذا يعرض الوحدة الوطنية للخطر).

٥- نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية، وهدم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية، وتشجيع ذلك والحض عليه عن طريق:

أ - القوانين التي تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها، وتعتبر ممارسة الزنا والشذوذ من باب الحرية الشخصية التي يجب أن تكون مكفولة ومصونة

ب - وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز التي لا تكل ولا تمل من محاربة الفضيلة، ونشر الرذيلة بالتلميح مرة، وبالتصريح مرة أخرى ليلاً ونهارًا.

ج - محاربة الحجاب وفرض السفور والاختلاط في المدارس والجامعات والمصالح والهيئات.

- محاربة الدعوة الإسلامية عن طريق:

أ ـ تضييق الخناق على نشر الكتاب الإسلامي، مع إفساح المجال للكتب الضالة المنحرفة التي تشكك في العقيدة الإسلامية، والشريعة الإسلامية

ب ـ إفساح المجال في وسائل الإعلام المختلفة للعلمانيين المنحرفين لمخاطبة أكبر عدد من الناس لنشر الفكر الضال المنحرف، ولتحريف معاني النصوص الشرعية، مع إغلاق وسائل الإعلام في وجه علماء المسلمين الذين يُبصِّرون الناس بحقيقة الدين.

٧ـ مطاردة الدعاة إلى الله، ومحاربتهم، وإلصاق التهم الباطلة بهم، ونعتهم بالأوصاف الذميمة، وتصويرهم على أنهم جماعة متخلفة فكريًا، ومتحجرة عقليًا، وأنهم رجعيون، يُحاربون كل مخترعات العلم الحديث النافع، وأنهم متطرفون متعصبون لا يفقهون حقيقة الأمور، بل يتمسكون بالقشور ويَدعون الأصول.

٨ـ التخلص من المسلمين الذين لا يهادنون العلمانية، وذلك عن طريق النفي أو السجن أو القتل.

٩ـ إنكار فريضة الجهاد في سبيل الله، ومهاجمتها واعتبارها نوعاً من أنواع الهمجية وقطع الطريق وذلك أن الجهاد في سبيل الله معناه القتال لتكون كلمة الله هي العليا، وحتى لا يكون في الأرض سلطان له القوة والغلبة والحكم إلا سلطان الإسلام، والعلمانيين عزلوا الدين عن التدخل في شؤون الدنيا، وجعلوا الدين في أحسن أقوالهم علاقة خاصة بين

الإنسان وما يعبد، بحيث لا يكون لهذه العبادة تأثير في أقواله وأفعاله وسلوكه خارج مكان العبادة فكيف يكون عندهم إذن جهاد في سبيل إعلاء كلمة الدين؟ !!

والقتال المشروع عند العلمانيين وأذنابهم إنما هو القتال للدفاع عن المال أو الأرض، أما الدفاع عن الدين والعمل على نشره والقتال في سبيله، فهذا عندهم عمل من أعمال العدوان والهمجية التي تأباها الإنسانية المتمدنة.

١٠- الدعوة إلى القومية أو الوطنية، وهي دعوة تعمل على تجميع الناس تحت جامع وهمي من الجنس أو اللغة أو المكان أو المصالح، على ألا يكون الدين عاملاً من عوامل التجميع، بل الدين من منظار هذه الدعوة يُعد عاملاً من أكبر عوامل التفرق والشقاق، حتى قال قائل منهم: والتجربة الإنسانية عبر القرون الدامية، دلَّت على أن الدين ذهب بأمن الحياة ذاتها هذه هي بعض الثمار الخبيثة التي أنتجتها العلمانية في بلاد المسلمين، وإلا فثمارها الخبيثة أكثر من ذلك بكثير والمسلم يستطيع أن يلمس أو يدرك كل هذه الثمار أو جُلها في غالب بلاد المسلمين، وهو في الوقت ذاته يستطيع أن يُدرك إلى أي مدى تغلغلت العلمانية في بلدٍ ما اعتمادًا على ما يجده من هذه الثمار الخبيثة فيها والمسلم أينما تلفت يمينًا أو يسارًا في بلد من بلاد المسلمين يستطيع أن يدرك بسهولة ويسر

ثمرة أو عدة ثمار من هذه الثمار الخبيثة بينما لا يجد بالسهولة نفسها بلدًا خالياً من جميع هذه الثمار الخبيثة (١)

آثار العلمانية السيئة على العالم الإسلامي

حرم الإسلام الخلوة بالأجنبية، ففي الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم فالله سبحانه وتعالى جعل للأسرة المسلمة نظاماً متكاملاً، يكفل لها الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، لذا فإن الله حينما يحرم علينا الفواحش والخبائث التي تضر بنا في ديننا ودنيانا، لا يريد حرماننا، وإنما يحافظ على ما فيه صلاحنا فيحل الطيبات لنا، وهو العالم بطبائع البشر، فلا يعرض الناس للفتنة للوقوع فيها، بل يسد أبوابها حتى لا يكلفهم مقاومتها، فهو دين وقاية للمجتمع، قبل أن يقيم الحدود ويوقع العقوبات عليها، وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير ولهذا نقول ماذا يريد دعاة السفور، والمزينون للناس حب الشهوات؟! إنهم يريدون إطلاق الغرائز من عقالها، بالكلمة، والصورة، والقصة، والفيلم، والمعسكر المختلط؛ ليوقعوا الفتاة المسلمة التي أعزها الله بدين الإسلام، وتعاليمه السمحة القيمة، التي تصونها من الوقوع في حبائلهم، حتى تصبح بضاعة مزجاة ساقطة لا قيمة لها، كما كانت في الجاهلية، فأعزها الله

١) العلمانية وثمارها الخبيثة - محمد شاكر شريف ص ١٠

بالإسلام فحماها طفلة من الوأد الذي كان يمارس في حقها، فتدفن حية لا ذنب لها إلا أن الله خلقها أنثى بل جعلها الإسلام حجاباً من النار لكافلها، ثم جعلها أختاً مصونة، وأماً كريمة، حث على البر بها، والإحسان إليها، هكذا تكون المرأة إذا كانت صالحة، وهي فتنة إن حادت عن هذا الطريق؛ لأن رسول الله ص أخبر أنه لم يترك فتنة أشد على أمته من الدنيا والنساء فهى فتنة إذا تركت تعاليم دينها، وذهبت مع دعوات الذين يريدونها سلعة يعبث بها ذئاب البشر، باسم الحرية والمساواة الزائفة إن العزة والكرامة في الدنيا والآخرة للمرأة المسلمة، المحافظة على تعاليم دينها، وإننا نجد بحمد الله في كثير من مجتمعات العالم الإسلامي عودة الفتاة المسلمة إلى تعاليم دينها، وأبرز ذلك ظاهرة الحجاب في تلك البلاد الإسلامية، وذلك ما يدعو إلى التفاؤل بعز هذا الإسلام ونصره، بعد أن جرب المخدوعون ما دعاهم إليه من يدعون إلى الحرية الزائفة، التي ظهر عوارها، وبان خداعها، فظهر الحق وهم كارهون، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

-الدعوة إلى الارتماء في أحضان الغرب وأخذ حضارته دون وعي ولا تمييز:فقد قام بهذه الفكرة كثير من دعاة التضليل للأمة الإسلامية عند ضعف المسلمين وتفرقهم، حيث زعموا أن سبيل التقدم والنهضة، هو السير خلف ركاب الغربيين، والأخذ بمنهجهم وطريقتهم في كل شيء، حتى نكون مثلهم في الحضارة الحديثة، بخيرها وشرها، وما يحمد منها

وما يُعاب ونتيجة لتلك الدعوات المغرضة من أدعياء الفكر، ذهب كثير من أبناء المسلمين إلى الدول الأوروبية، لإكمال تعليمهم، وغالباً ما يتأثر هؤلاء الطلاب بعادات الغرب وأفكاره.

- الزعم بأن الشريعة الإسلامية لا تتوافق مع الحضارة الحديثة:وهذا الزعم جاء نتيجة لاحتكاك أبناء الأمة الإسلامية بالحضارة الغربية الحديثة، فظنوا جهلاً أن الإسلام لا يتوافق مع الحياة العصرية، ولا ينسجم مع متطلبات إنسان هذا العصر بل قالوا إن الشريعة الإسلامية هى السبب في التخلف والرجعية، وأن السبيل إلى التخلص من هذا الداء، والنهوض بالأمة إلى التقدم والحضارة هو نبذ الإسلام وتعاليمه.

والعلمانيون في العالم الإسلامي يعرفون بالاستهانة بالدين، والتهكم والاستهزاء بالمتمسكين به، كما يعرفون بإثارة الشبهات، وإشاعة الفواحش كالسكر، والتبرج، والاختلاط المحرم ونشر الرذائل، ومحاربة الحشمة والفضيلة، والحدود الشرعية، والاستهانة بالسنن، كما يعرفون أيضاً بحب الفساق والكفار والإعجاب بمظاهر الحياة الغربية وتقليدها(١)

---

١) العلمانية وموقف الإسلام منها- د.حمود بن أحمد الرحيلي ص ٢٤ وما بعدها وفخ العلمانية - يوسف عبد الغفار.